القسم الأول

اللهجات وعوامل تكونها وأثرها فى النحو

تعريف اللهجة:

لعل خير ما يمكن أن يقال في التعبير عن اللهجة عند المحدثين: أنها طريقة من طرق الأداء للغة، ذات أنظمة وقوانين، تلاحظ في ظل حالة اجتماعية خاصة، ويراعيها المتكلم عند صوغ اللغة فتميز طبقة عن أخرى، ويختلف بها مكان عن آخر، وتعد جانبًا من جوانب التنفيذ الفعلي للغة، ومن ثمّ كانت لهجات المهن، ولهجات الحرف المختلفة، كما كانت اللهجات التى تنتمي إلى بيئات خاصة كاللهجات العربية على امتداد الوطن العربي مثل: المصرية، والسورية، واللبنانية، والعراقية(*)...[1].

ويبدو أن هذا هو ما كان يقصده منها القدماء، إذ نحس من أقوال أصحاب المعاجم أنها تعني عندهم: طريقة الإنسان التي جبل عليها فاعتادها ونشأ عليها في أداء لغته[2].

ومن الملاحظ أنهم قد استعملوا فى التعبير عنها ألفاظًا أو مصطلحات مثل: اللغة، اللحن، اللسان.

(*) عرف بعض الباحثين اللهجة بقوله: كيفية الأداء الموسيقي للنطق بالكلمة ولمخارج حروفها وأصواتها ونغمة أداء الجملة إثباتًا ونفيًا واستفهامًا وغير ذلك مما يشمل أوضاع الحروف وحالات الإمالة والإدغام والقلب والبدل والتقارب..

من بحث لعلي بن عقيل عن لهجة وادي حضرموت المنشور بمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية -ع ٣٨ س٧ عام ١٤٠١هـ ص ١٣١ وبعدها..

ومما يعاب على هذا التعريف أنه لم يشر إلى متن اللهجة من قريب أو بعيد وقصره على طريقة الأداء فسحب.

(١) محمد وجدي -دائرة معارف القرن العشرين- م ٨، ٣٧٤، معجم المصطلحات العلمية والفنية -يوسف خياط- ص ٦١٦، اللغة بين المعيارية والوضعية -تمام حسان- ص ١٨٢ وما بعدها.. وغيرها «بتصرف». وفي اللهجات العربية -إبراهيم أنيس- ص ١٦ وما بعدها.. بتصرف.

(٢) ابن منظور: لسان العرب -مادة لهج ٣: ٤٠١ وما بعدها.

ويبدو -لي- أن ما كان يهدف إليه الخليل «ت: ١٧٠هـ» بقوله: «والقنوع: بمنزلة الهبوط- بلغة هذيل- من سفع الجبل»[١].

وأبو زيد الأنصاري «ت- ٢١٦هـ» على الأرجح: بقوله: «سخوت النار، وسخيتها لغة»[٢].

وسيبويه «ت- ١٨٨هـ» بقوله: «وإن شئت قلت: إذا كان غدًا فأتني وهي لغة تميم.

وقوله: وهو لغة أهل الحجاز»[٣].

وابن قتيبة «ت- ٢٧٦هـ» بقوله: «باب ما جاء فيه ثلاث لغات من بنات الثلاثة... وما جاء فيه أربع لغات... وما جاء فيه خمس لغات وما جاء فيه ست لغات»[٤].

وابن دريد «ت: ٣٢١هـ» بقوله: «وسُقَى في لغة طيء وغيرها وبمعنى سقي، والخضاب: نخل الدقل بلغة أهل نجد»[٥].

وابن جني «ت- ٣٩٢هـ» في خصائصه بقوله: «باب اختلاف اللغات وكلها حجة»[٦].

وابن فارس «ت- ٣٩٥هـ» في باب اللغات المذمومة بقوله: «وبنو تميم يلحقون القاف باللهاة حتى تغلظ جدًا فيقولون: القوم بين الكاف والقاف وهذه لغة فيهم»[٧].

ولغة أهل المدينة: حضرت[٨].

---

(١) الخليل بن أحمد -العين- مادة قنع ١: ١٩٣- ط. بغداد.

(٢) أبو زيد الأنصاري- النوادر في اللغة ٢٤٢.

(٣) سيبويه- الكتاب ١: ١١٤، ٣٦٣- ط بولاق.

(٤) ابن قتيبة- أدب الكاتب ٤٦١ وما بعدها.

(٥) ابن دريد- الجمهرة في اللغة ١: ٣٢، ١٣٦.

(٦) ابن جني- الخصائص ٢: ١٠.

(٧) ابن فارس- الصاحبي فى فقه اللغة ٣٥، ٣٦.

(٨) معجم مقاييس اللغة ٢: ٧٧- مادة حضر.

وصاحب المخصص «ت- ٤٥٨هـ» في مخصصه إذ يقول فيه: «باب ما خالفت فيه العامة لغات العرب من كلام»[١].

والميداني «ت- ٥١٨هـ» بقوله: «أتى عليهم ذو أتى على فلان، وهذا مثل من كلام طيء وذو في لغتهم تكون بمعنى الذي»[٢].

وأبو بكر الأنباري «ت- ٥٧٧هـ» بقوله: وأَخَافَهْ لغة لخم». وقوله في الأضداد: «وحسب يحسب بكسر السين منهما لغة قريش»[٣].

وأبو حيان «ت- ٧٥٤هـ» بقوله: «ولغة بني عقيل وبني كلاب اختلاس حركة الهاء في به وله»[٤].

والسيوطي «ت- ٩١١هـ» في مزهره: «معرفة الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات»[٥].

وما روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من أنه قال: «عليٌّ أقضانا وأبيٌّ أَقْرَأُنَا، وإنَّا لَنَدَعُ كَثِيْرًا مِنْ لَحْنِ أُبَيٍّ»[٦].

وقوله أيضًا: «تَعَلَّمُوا الفَرَائضَ واللَّحْنَ والسُّنَنَ، كَمَا تَعَلَّمُونَ القُرْآنَ»[٧].

وما روي عن أبي إياس- رضي الله عنه- «. . . لَوْلاَ أَنْ يَجْتَمِعَ الناسُ عَلَيَّ لَقَرَأْتُ بِهَذَا اللَّحْنِ»[٨].

وأبي مهدية من قوله: «لَيْسَ هذَا مِنْ لَحْنِيْ ولاَ لَحْنِ قَوْمِي»[٩].

---

(١) ابن سيده- المخصص: ١٤: ٤٤.

(٢) الميداني- مجمع الأمثال ١: ٦٨.

(٣) الأنباري- الإنصاف ٢: ٥٦٨ وما بعدها، الأضداد في اللغة ١٠.

(٤) أبو حيان- البحر المحيط ٣: ٧١.

(٥) السيوطي- المزهر ١: ٢١٤.

(٦) مسند الإمام أحمد ٥: ١١٣، ط. بيروت.

(٧) سنن الدارمي- كتاب الفرائض ٢: ٣٤١ط- دار إحياء السنة،

(٨) مسند الإمام أحمد ٥: ٥٥ ط بيروت.

ومثلها ما روي من أن الرسول ﷺ قال: «**اقرأوا القرآن بلحون العرب**». الصحاح ٨: ٢١٩٣.

(٩) الزمخشري- أساس البلاغة ٥٦١.

وبعض المفسرين من قولهم في بيان المقصود باللسان من قوله تعالي: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ [إبراهيم: ٤] من أن المراد: هو لغة قومه سواء أكانوا من قريش أم من غيرهم من العرب[١]. وما ردده القرآن الكريم في عدة مواضع من استعمال اللسان بمعنى اللغة.

وأبو عمرو بن العلاء «ت ١٥٩هـ» بقوله: «مَا لِسَانُ حِمْيَرَ وَأَقَاصِيْ الْيَمَنِ بِلِسَانِنَا»[٢].

أقول يبدو -لي- أنهم إنما كانوا يقصدون -في أغلب الاحتمالات- بما قالوه فيما أوردناه عنهم سابقًا -طريقة من طرق الأداء للغة، تراعي في ظل حالة اجتماعية خاصة- بناء على أن هذه الألفاظ «لغة- لسان- لحن- لهجة» إنما كانت تفيد -فيما تفيده- عند معظمهم ما قررناه سابقًا.

ولعل استعمال اللسان بمعنى اللهجة أحيانًا قد جاء من قبل أنه الأساس الذي تنبثق عنه هذه اللغة الخاصة والعضو المباشر في عملية إحداثها، ومن عادة العرب أن تطلق الشيء على الشيء الذي هو منه أو من سببه.

أما اللغة: ففي ظني أنها اكتسبت هذا المعنى من قولهم: «لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه[٣]. قاله ابن الأعرابي»[٤]. فكأن أصحاب لغة الحجاز أو تهامة أو نجد... قد تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة الآخرين، أو لارتباطهما الوثيق بالمادة الصوتية.

وقريب من هذا مفهوم اللحن، فمهما قيل فيه فإن أوضح معانيه أنه خروج عن النظام المتبع والتقليد السائد عند أصحاب لغة مّا والتفات إلى سواه[٥]. ولا شك أن صاحب اللهجة قد مال عن الطريق الذي كان يسلكه في اللغة المشتركة إلى مذهب لغوي ذي أنظمة وقوانين تختلف نوعًا ما عن اللغة العامة التي يلتزمها الجميع.

---

(١) الألوسي- روح المعاني ١٣: ١٨٥.

(٢) ابن سلام الجمحي- طبقات الشعراء- ص: ٨- ط بيروت.

(٣) الأزهري- تهذيب اللغة ٨: ١٩٨- الدار المصرية.

(٤) ابن منظور- لسان العرب ٣: ٣٧٩- مادة لغا- ط بيروت.

(٥)الفيومي- المصباح المنير ٢: ٦٦٧- مادة اللام مع الحاء.

أما اللهجة: فلعل إطلاقها على هذا النمط من اللغة قد أتى من أن ولع صاحبها بها وعشقه إياها قد دفعاه إلى أن يلهج بها ويثابر ويتصرف وفق ضوابطها ويعتاد نظمها وتقاليدها الخاصة، ومن هنا صح أن تطلق هذه اللفظة على ذلك المفهوم الذي قررناه سابقًا وأن تعبر عنه.

وبعد: فإنني أعتقد أن العربي الذي كان يستعمل هذه الألفاظ كان على دراية بما تعنيه من مدلولات خاصة، ولابد أنه قد لاحظ نوع اختلاف بين لفظ وآخر، لكنه استعمل بعضها مكان بعض بحيث أصبح يفيده بمقتضى العرف وكثرة الاستعمال. ولهذا فإنني أرجح أن إطلاقهم (اللغة، اللسان، اللحن)، بجانب استعمال ثبت بالقطع قيامه بقبيلة معينة من القبائل العربية الكثيرة، وورد ضمن عبارة نقلت عنها، أو قول روي عن بعض أبنائها، لا يقصد به -في أقصى الاحتمالات- سوى ذلك الاستعمال الخاص بجماعة لغوية ما، وهو ما خصه الاصطلاح العرفي -فيما بعد- وأطلق عليه اسم اللهجة.

صلة اللغة باللهجة:

إذا تصفحنا بعض كتب النحاة الأوائل وجدنا أن معظمهم قد استعملوا لفظ اللغة في التعبير عن طريقة من طرق الأداء اللغوي فيها -وهو ما أشرنا إليه سابقًا- واصطلحنا علي تسميته باللهجة، فكيف ساغ لهؤلاء النحاة أن يعبروا بلفظ اللغة عن استعمال ثبت بنقل الأئمة عن قبائل العرب أنه لهجة خاصة ببعضها؟.

وللإجابة عن هذا السوال نقول:

إن اللهجة هي لغة من يتحدثها، ووسيلته إلى التفاهم مع الآخرين، وهي إنما تجري علي أسس وأصول مرعية، يراعيها المتكلم في الصوغ القياسي حينًا، وفي مراعاة المستوى الصوابي حينًا آخر.

وإذا كانت اللغة تعني: أصواتًا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[1]، ووسيلة إنسانية خالصة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبة عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية، ولها أنظمتها وأسسها التي يراعيها المتكلم، ويصدر قوله

(١) ابن جني: الخصائص ١: ٣٥.

علي هديها[1]، فإن اللهجة تشاركها في هذا المفهوم، وتنفرد عنها بأنها القالب الذي تؤدّى فيه اللغة بقوانينها وضوابطها، وعن طريقها تتشكل هذه اللغة في ألسنة أهلها، وتعتريها عوامل التطور والتقدم، أو عوامل الضعف والتحجر.

وبناء على ما تقدم فإن العلاقة بين اللغة -بالمعني العام الذي ذكرناه- واللهجة، إنما تقوم أساسًا على ارتباط عام بخاص، واللهجة عبارة عن نظام لغوي تعبر به جماعة بشرية عن أغراضها، لكن هذه الجماعة جزء من الجماعة الكبيرة التي تنسب إليها اللغة، كما أنها في الوقت ذاته تتصل ببيئة لغوية هي جزء من البيئة الكبرى للغة، ولها نظامها الكامل الذي يشمل الأنظمة الفرعية الأخرى في اللغة: وهي النظام الصوتي، والنحوي، والدلالي[2].

يمكن إذن اعتبار اللهجة وحدة صغرى من نظام لغوي أكبر تكوّنه عدة لهجات، وتتشارك في صنعه جماعات لغوية ترتبط فيما بينها بوشائح القربى أو تشابك المنافع وتبادل المصالح، وقوة ارتباط أفراد الجماعة اللغوية ببعضها -تحت أي ظرف- أو عدمه يؤثّر -بلا شك- علي تماسك لغتها وعدم تفرقها أو تشعبها وانقسامها.

وليس من شك في أن الإحساس بالفرق بين مستويات اللغة الواحدة، قد ظل ماثلاً في الأذهان من قديم جدًا، وتحدّثنا الروايات «أن الإغريق قد طبقوا أسس المقارنات بين اللغات على لغتهم اليونانية القديمة، مما ساعدهم علي التفريق بين اللهجات الفصحى للغة الفصحى اليونانية القديمة، ولعل أول دليل على الوعي بالفرق بين اللغة الفصحى واللهجة؛ ما قاله عالم البلاغة كونتلين «القرن الأول الميلادي»: «إنّ القدرة على التحدث باللغة اللاتينية شيء، والقدرة على التحدث بها مع مراعاة أصول النحو شيء آخر»[3].

وقريب من هذا، كان موقف العرب عامة من أمر هذه العربية ولهجاتها المتعددة، فمن المؤكد أن العربي الوافد من مختلف قبائلها على أسواق العرب

(١) جسبرسن- اللغة بين الفرد والمجتمع- ص ٦ وما بعدها.. بتصرف.

(٢) ينظر بعض هذا: في اللهجات العربية -إبراهيم أنيس- ص ١٦ وما بعدها.

(٣) ماريو باي- لغات البشر- وما بعدها- ترجمة صلاح العربي.

ومنتدياتها كان يستنكف أن يلقي خطبته أو قصيدته بلهجة قومه التي اعتاد عليها لسانه، إلا أنه إذا ودّع تلك الأماكن، وأقبل علي عشيرته ومواطن قومه، وجد من العنت والمشقة أن يخاطبهم في شئون الحياة اليومية بغير ما ألفوه كلامًا، ونشأوا عليه عادة[1]، وتشكلت على وَفْقه أعضاؤه النطقية، ولكل بيئة عادات كلامية لا يستطيع معظم أفرادها أن يتزحزحوا عنها بسهولة، ويظهر أن هذه الازدواجية كانت أمرًا مألوفًا عند عربي الجاهلية، ممن وصل إلينا عن طريقه بعض مظاهر هذه اللغة في مراحلها المتقدمة التي سبقت فترة التدوين والكتابة.

ولا شك أن القرآن الكريم قد أطل على واقع لهجي لأمة العرب؛ فراعى أمر لهجاتها، وبارك مسعى أبنائها في النطق بألفاظ على وَفْقِ تكوينهم العضوي «الفسيولوجى»، إسهامًا منه في التيسير على هذه الأمة التي تفرقت قبائلها في أنحاء الجزيرة، واصطبغت عاداتها النطقية بعوامل بيئية واجتماعية وخلقية.. أدت إلى اختلاف بين لهجاتها -في معظم مظاهرها اللغوية -عبر حقب وأزمان متطاولة.

ومن هنا فلأمرٍ مّا قُصِدَ من ورائه التخفيف على أبناء هذه الأمة من أن ينالهم العناء والمشقة نتيجة إلزامهم بما لا يطيقونه فروعيتْ بعض صفات لهجاتهم، وأُبِيحَ لهم أن يتصرفوا فيه على حسب ما تقتضيه عاداتهم النطقية وغلبة استعمالاتهم اللغوية[2]، وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك، فلما كثرت القراءات، وافترق الطريق بأصحابها، كثرُ الاختلاف بين طرق القراء، فرأى عثمان -رضي الله عنه- أن يوحِّد جميع المسلمين على حرف واحد، وألزم الجميع بالتزامه، -وسيأتي الحديث عن ذلك-، ومع ذلك ظل الإرث السابق من اختلاف لهجات القراء التي أثرت في قراءاتهم الصحيحة المسند خير شاهد على اختلاف قبائل العرب.

****

(١) إبراهيم أنيس- في اللهجات العربية: ٤٠: ٤٦ بتصرف.

(٢) صبحي الصالح -في علوم القرآن- ص ١١٣ وما بعدها- بتصرف.

الفصل الأول

اللهجات العربية

لمحة موجزة عن موطن العربية وتاريخها:

تُعَدُّ العربية -التى صورت لغة القرآن الكـريم بعض معالمها، وجاءنا عن طريقها ما صح من الشعر والنثر الجاهليين- إحدى اللغات المتفرعة عن السامية الأولى.

وتؤلف مع مجموعة اللغـات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامـية مجموعة اللهجات الجنوبية الغربية.

وتقـابل -من حيث التـوزيع الجغـرافى للغات السـاميـة- اللهجـات الكنعانـية والآرامية حيث يطلقون عليها اسم الشمالية الغربية.

وجميع هذه اللغات واللهجات تكوّن الطائفة الغربيـة لمجموعة اللغات السامية، أما الطائفة الشرقـية: فهي مجموعة اللغـات البابلية والأشورية[1] وما تفرع عنها. ولم يقف العلماء -حتى الآن- على بدايات اللـغة التى تُعَدُّ العربية الباقـية امتدادًا لها، وإن كان من الـثابت تاريخيا أن اللغـة العربية «كانت لغة الأقـوام التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية، وتهاجر منها وإليها في تلك الحقبة، وقد كانت لغةً واحدةً من اليـمن إلى مشارف العـراق والشام وتخوم فـلسطين وسيناء»[2]. وهى ليست العـربية التي وصلت إلينا ممثلةً لقرن ونصف قـبل الإسلام أو تلك التي نزل بها القرآن، واستمرتْ بعـد حتى يومنا هذا، فلم يكن في العالم واحد يتكلم هذه اللغة في عصر إبراهيم، ولا فى العصور اللاحقة به إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد[3].

وتاريخ اللغة العـربية يؤكـد وجود عربيـة شماليـة، وأخرى جنوبية «أو عـربية القحطانيين، وعربية العدنانيين» تفرعتا عن أصل واحد، وتوفر لكليهما من عوامل

---

(١) وافي: فقه اللغة ٩٦، صبحي الصالح -دراسًات في فقه اللغة ٤٩.

(٢) العقاد -إبراهيم أبو الأنبياء- ٢٠٣.

(٣) نفسه ٢٠٣.

الانقسام والتشعب -على ما سنتحدث عنه في موضعه- ما ساعد على استقلال كل منهما عن الأخرى، بمجموعة من الخصائص والمقومات، أدّتْ إلى وجود تباين بينهما في الكثير من أوضاعهما وتصاريفهما وحركات الإعراب، وإذا كان هناك من الدلائل ما يشير إلى أن أول امتزاج حدث بين عربية الشمال وعربية الجنوب-، بعد انبثاقهما عن أصل واحد وتفرقهما إلى لهجات-، إنما كان على يد إسماعيل وأحفاده؛ فليس من شك فى أن إبراهيم إنما كان عربيًا يتكلم عربية زمانه، وهذا بخلاف ولده إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- الذى يعد أبا للعرب العدنانيين على اختلاف قبائلهم، فبعد مجيء إبراهيم -عليه السلام- بولده إسماعيل -عليه السلام- وأمه إلى مكة، وَوَضَعَهُمَا هناك، بَقِيا وحيدين حتى مرت بهما رُفْقَةٌ من جرهم، فتزوج إسماعيل من الجرهميين، وسكنوا معهما، وشبّ إسماعيل، وتعلم العربية منهم، والروايات تؤكد أن أم إسماعيل إنما كانت مصريةً تتكلم لغة قومها المصريين، فتعلم لغة أمه بادئ ذى بدء حين شب بعيدًا عن والده العربي[1]، فالامتزاج إنما كان بين لغتين لا صلة لإحداهما بالأخرى، على أن المصرية وإن أَثّرتْ في لغة أخوال الإسماعيليين فهو تأثير سرعان ما تلاشى في خضم الكثرة الكاثرة من الجرهميين باليمنيين؛ إذ المعقول أن يكون وجود إسماعيل صغيرًا في تلك الكثرة الجرهمية الغامرة من العرب الصرحاء، يجعل منه عربيًا في أخص صفاته، وهي اللغة التي عليها مدارُ التفاهم العام، بل التفاهم الخاص الذي يقضي به مقام إسماعيل بينهم[2]، وعليه يمكن القول: إن لغة العدنانيين التي عاشت بمكة أول أمرها إنما كانت عربية جرهمية يمنية، بناء على تأكيد معظم الباحثين على أن عربية دولة القحطانيين التي وجدت في اليمن بين القرن «الثامن- والثاني ق.م» كانت المنطلق الحقيقي لعربية مضر وما جاورها، «ولهذا يعتقد المؤرخون أن اليمن هي مصدر العربية الأول، ويؤيده قول الباحثين؛ إذ كانوا يقولون: إن العرب العاربة هم أهل اليمن ثم يليهم العرب المستعربون[3]، وليس

(١) محمد مهران -دراسة حول العرب- مجلة كلية اللغة العربية ع ٦ ص: ٣١٧ وما بعدها.

(٢) من بحث للأستاذ صادق إبراهيم عرجون عن اللغة الأدبية واختلاف اللهجات العربية قبل الإسلام -مجلة الأزهر م ٧ ص: ١٨٦.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء- ١٨٩.

في الحديث الذي رواه ابن سلام «أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالعَرَبِيَّةِ ونَسِيَ لِسَانَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلُ بنُ إِبْرَاهِيمُ»[1] متمسك للمخالفين؛ لأنه -على تقدير صحته- لا يدل إلاعلى أن إسماعيل نسي لغة أبيه إبراهيم، ومقتضاه أن العدنانيين -الذين هم من ذريته- قد خلقوا ينطقون بالعربية، وليسوا هم الذين محيت لغتهم الأولى من صدورهم، وثبتت فيها هذه اللغة المستعارة، ولا أثر فيها للغات عرب الشمال، إلا أن نواحي مكة وما جاورها من أرض الحجاز لم تستمر بعيدةً عن تأثير لغات الشمال وغيرهم ممن كانت تربطهم بهم مصالحٌ مشتركة، وصلاتٌ متبادلة، فقد ظلت مكة وما وراءها من بلاد الحجاز -عبر حقب التاريخ- ملتقى لعدة أمم ومنها اللغة الشمالية، وتخلف عن ذلك كثير من آثارها ومنه ما كان فى جانب اللغة، وفَعَلَ التقاربُ بين عرب الحجاز العدنانيين وأمم الشمال ممن انحدروا من الأصول السامية الأولى فِعْلَه، فوجد تقاربٌ بين عربيتهم ولغات تلك الأمم، ولعل فى ذلك ما يفسر قرابة أهل الحجاز اللغوية من النبطيين -أبناء إسماعيل- عليه السلام-، وهذا ما يمكن الركونُ إليه، لا ما صرح به العقاد عند قوله: «وهذا التقارب إنما يدل دلالة واضحة على أن القرشية قد تطورت أساسًا من لغات الشمال لا من لغات الجنوب»[2]. إذ ليس بأيدينا -حتى الآن- ما يؤكد الزعمَ بانبتات الصلة بين الحجاز بمن فيه وبين أهل اليمن، فقد ظلت اليمن محطَّ رحال تجار الشمال بمن فيهم الحجازيون، إلا أن هذه الصلة ربما لم تساو في قيمتها أو أهميتها صلة الحجازيين بأمم الشمال، مما جعل لغتهم -عند بعض العلماء- مغايرةً للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها، كما ظلت تنقلات قبائل العرب داخل الجزيرة العربية مستمرةً، تتحكم فيها عواملُ العيش، وظروف الحياة القاسية، ورغباتُ زعماء القبيلة فى الاستقرار أو التنقل، فبنو لحيان -وهم من عرب اليمن- كانوا يسكنون شمال الحجاز قبل أن يستوطنه الثموديون الذين كانوا يتجهون في تحركاتهم وتنقلاتهم من الجنوب إلى الشمال، فقد نزحوا من العسير إلى الحجاز ثم من جنوبي الحجاز إلى مواطن بني لحيان، وما حدث لهؤلاء قد حدث لكثير من

---

(١) ابن سلام -طبقات فحول الشعراء- ٨ - ط بيروت. وقد روى الحديث يونس بن حبيب من طريق مسمع ابن عبد الملك أنه سمع محمد بن علي يرويه عن أبي عبد الله ويظنه أنه قد رفعه.

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٣٢.

القبـائل العربـية التي رحلت من اليـمن إلى الشمـال، كبني مـعين وكندة وكليب والأوس والخزرج، وبعض هذه القبائل قد أثرت في لغة القـبائل الحجازية وأقلامها وفي حضارتها تأثيرًا عظيمًا[1].

وهناك قبائلُ عدنانيـة يذكر المؤرخون أنها معروفة بأسمائهـا وأنسابها قد رحلت إلى اليمن تحت ظروف من الحـياة ملجئة، واسـتوطنته حـينا من الدهر ثم خرجت منه[2]، وكل ذلك ربما خلف آثارًا على لغة الإقـليمين يدعونا إلى الافتـراض بتأثر عرب الشمال بلغات الجنوبيين والعكس، ورغم كل هذا، فمعظم الباحثين يؤكدون بُعْـدَ لغة اليـمنيين عن لغـات بني نزار، ويحكمـون عليـها بـأنها لغـة مـستـقلة بخصائصـها، ومنفردة بميزاتهـا، على أن ذلك ربما كان قبل أن تتـوطد العلاقات، وتكثر حركات التنقل والهجـرة من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، ثم إن وُجِدَ شيءٌ منه بعد ذلك فإنما ينطبق على المناطق النائيـة من الأصقاع البعيدة عن التأثر بما يرد على بلادها، وقد اخـتفى أكثرهُ بعد اختلاط العـرب اختلاطًا تامًا برحلة معظم قبائل اليمن إثْر حادث السيل إلى الشـمال، وتوطُّنِ كثير منها الحجاز ونجد وما إليهما من بلاد الشمال، حـيث قام صراعٌ لغوى بين لغتى الأمتين، انتهى -فيما وصل إلينا- بتغلب العدنانية على اليـمنية الجنوبية مخلفًا وراءه كثيرًا من آثار اللغـات المغلوبة فى جـميع خـواصـها، مما نشـأ عنه تقـاربٌ بين لغـات الشمـال والجنوب، «كمـا حدثت أسـباب -سيـاسية واجـتماعـية ودينيـة أدّتْ إلى انحلال العصبـية الأصلية في بلاد اليمن ذاتها قـبيل ظهور الإسلام، وكان من نتـيجة هذا الانحلال أن تسربت اللغة الشماليـة ودخل النفوذ الشمالي في تلك الأصقاع. . .، وبعد فتَنٍ كثيـرة توالتْ عليها، حدثت إغاراتٌ عليها من جـانب الحبشة والفرس، رَثتْ قُواها المعنوية والمادية، وَوَهَتْ دعائمٌ استقـلالها، وضَعُفَتْ عواملُ تأثيرها في الشمال وانعكست حالتها، وانقلبت مواقفهـا، فأصبحت قابلةً للتأثير من الشمال، الذى امتاز في القرن السادس والسابع بعد الميـلاد بالقوة والنشاط، وانبعاث النهضة الفكرية والدينية العظيمـة فى جميع الجزيزة العربية. .، وقضتْ الدعـوةُ الإسلامية

(١) إسرائيل ولغنسون -تاريخ اللغات العامية ١٧٤- بتصرف.

(٢) بحث للأستاذ صادق إبراهيم عرجون تحت عنوان اللغة العربية. . مجلة الأزهر م ٧ ص ١٨٥.

التي ظهرت في مظهر عربي قومى على بقايا اللهجات الجنوبية القديمة دون أن تلقى أي مقاومة»[1].

وفي هذا بعضُ ما يردُّ به على من قال: كانت اللغة الفحصى إذن لغة أدبية للعرب وغير العرب بعد ظهور الإسلام، فأما قبل ظهور الإسلام فلا نتبين كيف استطاعت أن تكون لغةً أدبيةً للقحطانيين، ونحن نعلم أن السيادة السياسية والاقتصادية التي من شأنها أن تفرضَ اللغةَ على الشعوب قد كانت للقحطانيين[2]، -وسيأتى الحديث عن ذلك-، إلا أن هذه العربية الفصحى -على الرغم مما قيل فيها وفى أصل انتمائها- قد تعرضتْ لما تتعرض له جميعُ اللغات من عوامل الانقسام والتفرق إلى لهجات -متى توفر لها بعض ذلك من عوامل طبيعية جغرافية أو اجتماعية أو سياسية..، فانشعبَتْ العربية -بناء على ذلك- منذ أيامها الأولى إلى لهجات كثيرة يفترق بعضُها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والنحو والدلالة، واستقلتْ كلُّ قبيلةٍ وكلُّ جماعة متحدة فى ظروفها الطبيعية والاجتماعية...، بلهجة من هذه اللهجات التي تختلف فيما بينها اختلافًا أحسَّه القدماءُ، ووصفوا لنا معظم مظاهره، وهكذا تمكنَّا من الوقوف على لهجات حجازية وتميمية وأسدية وأزدية وهمدانية...، فكيف تصوّر القدماء من علماء العربية أسبابَ اختلاف هذه اللهجات، وما هي أسباب ذلك عند الباحثين المحدثين؟

هذا ما سنناقشه بالتفصيل فى الفصل التالي -إن شاء الله.

****

(١) إسرائيل ولفنسون -تاريخ اللغات السامية ص ٣٠٥.

(٢) د. طه حسين -فى الأدب الجاهلى - ص ٨٩.

أسباب تكوّن اللهجات العربية

أولاً- عند علماء اللغة العربية القدامى:

١- نقل ابن جني في خصائصه رأيَ أبي الحسن في سبب اختلاف لهجات العرب الذى وصفه بأنه الصواب إذ يقول: «وذهب إلى أن اختلاف لغات العرب إنما أتاها من قِبَل أن أول ما وُضِعَ منها وضع على خلاف وإن كان كله مسوقًا على صحة وقياس، ثم أحدثوا من بعدُ أشياءَ كثيرةً للحاجة إليها، غير أنها على قياس ما كان وُضِعَ في الأصل مختلفًا، وإن كان كل واحد آخذا من صحة القياس حظًا، ويجوز أن يكون الموضوع الأول ضربًا واحدًا ثم رأى من جاء من بعد أَنْ خَالَفَ قياسَ الأول إلى قياسٍ ثان جارٍ في الصحة مجرى الأول، وكان الأخفش يذهب إلى أن ما غُيِّر لكثرة استعماله إنما تصوَّرتْه العربُ قبل وضعه، وعلمت أنه لابد من كثرة استعمالهم إياه، فابتدأوا بتغييره علمًا منهم بأنه لابد من كثرته الداعية إلى تغييره»[١].

ويرى أكثر القدماء: أن الاستعمالَ هو الذى أَكْثَر من صور الاختلاف في لغة العرب، إذ ينزعُ كلُّ متكلم إلى صورة الكمال، فينوِّعُ في استعمال الألفاظ وإيقاعها على المعاني، حتى وجدنا من أنكر الترادفَ في العربية قائلاً: لا يكون فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى واحد، كما لم يكونا على بناء واحد إلا أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين، فأما من لغةٍ واحدةٍ فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد، كما يظن كثير من اللغويين والنحويين، وإنما سمعوا العربَ تتكلم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة، وعلى ما جرتْ به عاداتُها وتعارفُها، ولم يعرف السابقون لذلك العلةَ فيه والفروقَ فظنوا أنهما بمعنى واحد، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم، فإن كانوا قد صدقوا في رواية ذلك عن العرب فقد أخطأوا عليهم في تأويلهم ما لا يجوز في الحكمة، وليس شيءٌ من هذا الباب إلا على لغتين مختلفتين متباينتين -كما بيَّنَّا- أو يكون على معنيين مختلفتين أو تشبيه شيء بشيء»[٢].

---

(١) الخصائص ٢: ٢٩، المزهر ١: ٥٦.

(٢) المزهر: ١: ٣٨٤.

٢- وقد يكون للحال التي عاش عليها أصحاب هذه اللغة داخل جزيرتهم، وما كان يتطلبه وضعُ حياتهم في بعض الأحيان من التلاقي في بعض المناسبات للتصافي، ونبذِ الثاراتِ والضغائنِ والتحاكمِ فيما بينهم لإطفاء نار الفتن، وفضِّ الخلاف والاجتماع في المواسم والمناسبات الدينية من الحج إلى الكعبة، أو الدنيوية لقضاء حاجة أو تحت أى ظرف من ظروف حياتهم فيما سوى ذلك، أكبرُ الأثر في نشأة لهجة أو أكثر، إذ يؤدي كلُّ أولئك إلى أن يراعيَ بعضُهم لغةَ بعض فينقلها إلى لغته، ويجري عليها ما اعتاده لسانُه في طريقة النطق والصوغِ القياسي فتتركبُ لغةٌ ثالثة. . .

قال ابن جني: قد قالوا قلَيتَ الرجل وقَليته فمن قال: قلَيته فإنه يقول أقليه ومن قال: قَليته قال: أقلاه، وكذا من قال: سلوته قال: أسلوه ومن قال: سَليته قال: أسلاه ثم تلاقى أصحاب اللغتين فسمع هذا لغة هذا وهذا لغة هذا فأخذ كل واحد منهما من صاحبه ما ضمه إلى لغته، فتركبت هناك لغة ثالثة، كأن من يقول: سلا أخذ مضارع من يقول: سَلِيَ فصار في لغة سلا يسلى[1]. ويؤيد ابن جني فكرته هذه بما رواه الأصمعي قال: «اختلف رجلان في الصقر فقال أحدهما: الصقر «بالصاد» وقال الآخر: السقر «بالسين»، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما إنما هو: الزقر. قال معقبًا على تلك الرواية: أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة، كيف أفاد في هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها، وهكذا تتداخل اللغات.

ونقل الكسائي ما نصه: سمعت من أخوين من بني سليم يقولان: نما ينمو، ثم سألت بني سليم عنه، فلم يعرفوه. وأنشد أبو زيد لرجل من بني عقيل:

أَلَمْ تَعْلَمِي مَا ظِلْتُ بِالْقَوْمِ وَاقِفَا عَلَى طَلَلٍ أَضْحَتْ مَعَارِفُه قَفْرَا

فكسروا الظاء في إنشادهم، وليس من لغتهم[2].

وما ذكره ابن جني -على أنه سبب من أسباب اختلاف اللهجات- يصح -عندي- إذا قلنا بأن أهل لهجة مَا قد راعوا لهجةَ غيرهم وطال تكررُها عليهم حتى

(١) الخصائص: ١: ٣٨٦.

(٢) ابن جني- الخصائص: ١: ٣٨١.

وُجِدَتْ في كلامهم، وإلا فإن التلاقيَ واجتماعَ أصحاب اللهجات المتنوعة يؤدي - مع مرور الوقت[1]، وتكراره -إلى توحُّد خصائصها ومظاهرها المتباينة في لغة موحدة مشتركة، لا إلى اختلافها واتخاذها صوراً متعددة.

٣- وربما عُدَّ من أسباب تَنَوُّعِ اللهجات في اللغة العربية: أن يكون ذلك قد وقع إليها من لغة قديمة طال عهدُها، وعَفَا رسمُها، فلم يُعْرَفْ أصلُها، فاعتُبِرتْ لغةً جديدةً لا صلةَ لها بما قبلها مع أنها قد تخلفت عن تلك اللغة القديمة، فقد رووا عن أبي حاتم أنه سأل أم الهيثم الأعرابية عن نوع من الحب يسمى «اسفيوش» ما اسمه بالعربية؟

فقالت: أرني منه حبات، فأراها فأفْكَرَتْ ساعةً ثم قالت: هذه البحدق، ولم يُسْمَعْ ذلك من غيرها[2].

ونرى مثل هذا عن ابن جني عندما يقول في باب «ما يرد عن العربي مخالفًا لما عليه الجمهور» فإن قيل: «فمن أين ذلك له وليس مسوغًا أن يرتجل لغة لنفسه؟ قيل: قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة، قد طال عهدها، وعفا رسمها، وتَأَبَّدَتْ معالمُها، أخبرنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الحجاج عن أبي خليفة الفضل ابن الحباب قال ابن عوف عن ابن سيرين قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه-: كان الشعر علم القوم، ولم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب على الأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يؤلوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عنهم أكثره، وحدثنا أبو بكر أيضًا عن أبي خليفة قال: قال يونس ابن حبيب: قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير...، وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة بني نزار، فقد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة في لغتهم، فيساء الظن فيه بمن سمع منه، وإنما هو منقول من تلك اللغة»[3].

---

(١) نفسه.

(٢) السيوطى- المزهر: ١: ٢٥٢.

(٣) الخصائص: ١: ٣٨٦.

ومما يستـأنس له في هذا المقام مـا نجده عند معـاصره ابن فارس عندمـا يقول: «ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أن الذى انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاء جـميع ما قـالوه لجاء شعـر كثيـر وكلام كثـير، وأَحْرِ بهـذا القول أن يكون صحيحًا، لأنا نرى علماء اللغة يختلفـون في كثير مما قالته العرب، فلا يكاد واحد منهم يخبّر عن حقيقة ما خولف فيه، بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان، ويورد من الألفاظ كثيرًا ممـا لم يستطع العلماء أن يصلوا في فهمها وتوضيح مـعانيها إلى شيء، ومستحيل أن لا تكون لها معانٍ عندما وُضِعَتْ ابتداءً، ثم ختم ذلك بقوله: وقد كان لذلك كله ناس يعرفونه، وكذلك يعلمون معنى ما نستغربه اليوم نحن من قولنا: عُبْسُور في الناقة، وعَيْسجُور، وامرأةٌ ضِنَاكٌ، وفرس أَشَقُّ أَمَقُّ خِبَقٌّ، ذهب هذا كل بذهاب أهله ولم يبق عندنا إلا الاسم الذى نراه»[1].

٤- وقد أشـار بعض علمـاء اللغة القـدامى -ومنهم ابن جني- إلى الأثر الذى يتركه استعـمال عدد كثير من المتكلمين للغة في اخـتلاف بعضُ نُظُمِهَا على ألسنة هؤلاء القوم إذا كَثُرَ عـددُ متكلميها، وتباعدتْ بهم ديارُهم عن مـوطن جماعاتهم اللغوية، فـإنهم يكونون حينئذ عـرضةً للاتصال بسـواهم من غير بنى قـومهم عن طريق التجاور والتلاقى والتزاور، فيجرون مجراهم، وكأنهم جماعة واحدة، ومن هنا يُلاَحِظون لغتَـهم، ويراعونهـا، ويجعلونها من مـهمِّ أمرهم، وذلك داع -ولا ريب- إلى اختلاف لهجات اللغة الواحدة، وتشعُّبها إلى لهجات أيضًا»[2].

ومما تقدم يتضح لنا تصوُّرُ بعض علماء اللغة القدامى لاختلاف اللهجات العربية عند العرب وأسـبابه في نظرهم، وهو تصورٌ يتـفق مع الواقع اللغوي وقتـئذ، ولا يخلو من الصحـة؛ إذ أَيَّده الباحثون المحدثون في علم الـلغة، واعتقدوا صـحته. فكيف تصوروا أسباب اختلاف اللهجات العربية؟

ثانيًا- أسباب اختلاف اللهجات العربية عند الباحثين المحدثين:

أما علمـاء اللغة في العصـر الحديث فقد ذكروا عِـدَّةَ عوامل رأوا أنها السبب في ذلك الاختلاف وأهمها على التوالي:

---

(١) الصاحبى في فقه اللغة ٥٨ وما بعدها.

(٢) الخصائص ١: ٢٤٣ وما بعدها، ٢: ١٥ وما بعدها.

١- عوامل طبيعية.

٢- عوامل اجتماعية.

٣- عوامل تاريخية.

٤- عوامل فردية.

٥- عوامل الصراع اللغوى.

أولاً- عوامل طبيعية:

تتعلق بأمورطبيعية لا شأن للمخلوق بها، وتتلخص في ناحيتين: صاحبِ اللغة من حيث تركيبُه الخِلْقي «الفسيولوجي»، والبيئةِ التى وجد بها من تضاريس ومناخ.

فالأولى: تكمن فى عوامل خلقية عضوية يُعْزَى إليها بعض ما يصيب اللغةَ التي يتكلمها أفرادٌ مختلفون في عصور مختلفة من تبدلاتٍ صوتيةٍ أو نحويةٍ أو غيرِهما، ويرون أنه من المحال في ظل فروق كهذه أن تظلَّ اللغةُ محتفظةً بوحدتها الأولى أمدًا بعيدًا، فعلى الرغم من أنه لم يثبت علميًا -حتى الآن- وجودُ فوارقَ واضحةً بين الناس في الجهاز الصوتي، بل وُجِدَ العكسُ؛ إذ بَرْهَنَ علماءُ التشريح أن أعضاء النطق عند الإنسان متحدة في جميع تفاصيلها[1] إلا أنه لابد من الاعتراف بوجود فروق محسوسة بين الأفراد داخل الجماعة اللغوية في طريقة نطق بعض الأصوات تؤدِّي -مع مرور الوقت، وتعاقُبِ الأجيال، وابتعادِ أبناء الجماعة اللغوية بعضهم عن بعض- إلى وجود اختلافات قد تَتَسَبَّبُ مستقبلاً -مع عوامل أخرى- في نشأةِ لهجاتٍ داخل كيان اللغة الواحدة، وإلى هذه الأسباب يُعْزَى كثيرٌ من صور القلب والإبدال والانحراف في نطق الأصوات والابتعادِ بها عن مواقعها، مما يترتب عليه اختلافٌ في نطق الألفاظ، وتعددٌ في مظاهرها بين أفراد الجماعات اللغوية في داخل اللغة الواحدة، ففي العربية مثلاً:

---

(١) محمد الأنطاكى- الموجز في فقه اللغة ١٥٢ وما بعدها، وانظر بحثا عن تفسير بعض مشكلات الفصحى- عبد الغفار هلال- مجلة كلية اللغة ع ٦ ص١٢٧.

حدثتْ صورٌ من ذلك كـالقلب والإبدال. . . فقد رُوِيَ عن اللحـيانى أنه قال: «قُلْتُ لأعرابي: أتقولُ: مـثل حَنَكِ الغراب أو مثل حَلَكِه؟ فقـال: لا أقول: مثل حَلَكِه.

وما يروى عن أبي حـاتم: قلت لأم الهيـثم: كيف تَقُولين: أَشَـدُّ سوادا مماذا؟ قالت من حَلَكِ الغراب، قلت: أَفتَقُولِينَهـا: من حَنَكِ الغراب؟ فقالت: لا أقولها أبدا»[1].

وقالوا: الأَثَاثِي في الأثافي[2]، وَجَدَ ثٌ في جدف، فأبدلوا الفاء ثاء، وقالوا: كُشِطَتْ في قشطت[3]، وعتّى في حتى، وفحصطٌ وحصطٌ في فحصتُ وحصتُ، وصاطع في ساطع، والزقـر والسقر في الصقر، وقـالوا: اللصوت في اللصوص، والنات في الناس[4].

وقالوا جَبَذَ فى جَذَبَ، وصَقِعَ في صعق، وأَهْبَذَ في أَهْذَبَ. . .[5].

وقد اخـتلفوا في تعليل أسـباب هذا الاخـتلاف بين حروف هذه الكـلمات -التي أشرنا إليها- إلا أن الراجح في أمرها أن يقـال: إنَّ بعضَها إنما يمثل الأصلَ، وما جاء في صورتها مع اختلاف في التقديم والـتأخير أو إبدال حرف مكان آخر، إنما هو فرع عنه جِيءَ به لغـرض، وربما كان لهـجةً لبعض القـبائل العـربية، غـير أن البـاحثين المحدثين يَرَوْنَ أن مـعظمَ هذه الألفاظ مما لـم يُنَصَّ على أصالتـها تُعَدَّ وليـدةً للتطور الصوتى جـاء للتغيـر الذى يطرأُ على الجهاز النطـقي للإنسان، فهـو يسلك في نطقه أَيْسَرَ السُّبُلِ، ولذا يرجح أن الهـمزة في «جبرائيل» قد سُهِّلتْ وأصـبح للكلمة صورةٌ أخرى هي جبريل، وتسهيل الـهمزة ظاهرة من ظواهر التطور الصوتى في كل اللغات السامية، وكذلك يمكن أن نرجِّحَ أن الصوت الرخو يتطور عادةً إلى نظيره الشديد، مما يُرَجَّحَ أن «فاظت» أصل، و«فاضت» فرعٌ لها، وأن الصوتَ المهموس يتطور عادةً إلى نظيره المجهور، مما نُرَجِّحُ معه أن «كشطت» هى الأصل، و«قشطت» فرع لها[6].

---

(١) المزهر ١: ٤٧٥ وما بعدها.
(٢) المزهر ١: ١٦٥.
(٣) سر الصناعة: ٢٥٠ وما بعدها.
(٤) نفسه ١: ٢٠٨، ١٧٢ وما بعدها.
(٥) المخصص ١٤: ٢٧ وما بعدها.
(٦) إبراهيم أنيس -من أسرار اللغة- ٧٥ وما بعدها.

ويُسْهِمُ التَّطورُ في أعضاء النطق بقسط وافرٍ في هذه التبدلات الصوتية التي تصيب بعض اللغةَ -كما قدمنا-، وهذه التبدلاتُ الصوتية ذات أثارٍ واضحة في نشأة بعض الصيغ الجديدة، بجانب الصيغ القديمة في البيئة اللغوية الواحدة في فترة معينة، وقد تنقرضُ القديمةُ من الاستعمال لِتُفْسِحَ المجالَ لهذه الصيغ الجديدة أو يعيش الاثنان معًا.

أما في البيئات المتعددة: فلا مانعَ من وجود كلٍّ في موضعه[1]، وقد عَلَّلَ أبو الطيب اللغوي بعضَ صور الإبدال عند العرب بأنها «إنما هي لغاتٌ مختلفة لمعانٍ متفقة تتقاربُ اللفظتان في لغتين لمعنًى واحدٍ حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد.

والدليل على ذلك أن قبيلةً واحدة لا تتكلمُ بكلمة طورًا مهموزة وطورًا غير مهموزة، ولا بالصاد مرةً وبالسين أخرى، وكذلك إبدال لام التعريف ميمًا، والهمزة المصدرة عينًا كقولهم في «أن» «عنّ»، لا تشتركُ العربُ في شيءٍ من ذلك، إنما يقول هذا قومٌ، وذاك آخرون»[2].

ومهما بُولغَ في تقدير هذه العوامل «الفيزيولوجية والتطور الطبيعى لأعضاء النطق التي تقع عليها قسطٌ كبيرٌ من التبعية فيما يصيب اللغةَ من تحريفٍ في أصواتها، واختلافٍ في طريقة نطقها بين الشعوب، فإنَّ قسطا كبيرا من هذه التبدلات الصوتية تحدثُ نتيجةً لمؤثرات وعوامل خارجية، وتُؤَدِّي فيها البيئةُ الجغرافيةُ أَثَرا مهما فيما يصيب أصواتها من شدةٍ وفخامةٍ أو رقةٍ ورخاوةٍ - وسنفصل القول عن ذلك فيما سيأتي:

أما الثانية: فهي عواملُ جغرافية تتمثل في التضاريس والظواهر الجوية والمناخية، فقد ثبت أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين اللغة والموطن الجغرافي للجماعة اللغوية، ويترك ذلك آثاره على أداة التعبير المستعملة في هذا الموطن أو ذاك، ومن هنا تتشكَّلُ أصواتُ اللغة فى أَلْسنة سكان البيئة على ما يُلاَئمُ البيئةَ نفسهَا من رقَّةٍ في الألفاظ والأصوات أو ميل إلى الشدة والفخامة، فنجد اختلافًا ملحوظا بين لغات سكان الصحاري والمناطق الجافة عن لغة سكان الحواضر والمناطق الخصبة والغنية

(١) عبد الغفار هلال- تفسير بعض مشكلات الفصحى- مجلة كلية اللغة ع٦ ص١٢٧.
(٢) المزهر ١: ٤٦٠.

بمناظرها ومواردها الطبيعية، فقد تَسَبَّبَ عن توزُّعِ حياة العرب في جزيرتهم إلى فئتي البادية والحاضرة أن تَأَثَّرَتْ لغةُ كُلٍّ من القبيلين طبقًا لما يحيط بها من ظروف بيئية، فترك ذلك أَثَرَهُ على العربية في كثير من المظاهر التي وصلتْ إلينا بعضُ آثارها، فنجد التميميين -وهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها- يميلون إلى النبر (وهو تحقيق الهمزة) «لأنها صوت حنجرى انفجارى شديد وهو مما يناسبُ البيئةَ البدوية»[1]، بينما نجد معظم الحجازيين ممن عاشوا بعيدًا عن بيئة الصحراء وتأثيرِها يميلون إلى التسهيل: (وهو تخفيف الهمزة)، «وهى لهجة بيئة الحجاز الحضرية وبخاصة قريش فى مكة والأوس والخزرج في المدينة»[2].

والملاحظ أيضًا أن تميما تجنحُ إلى الأشدِّ الأفخم، لأنها بدوية وأن قريشا تختار الأرقَّ الأفعم، لأنها حضرية[3]، وتميل فقيم النجدية البدوية إلى النطق بالياء المشددة في الوقف جيمًا فيقولون: في على علج، وفي تميمي: تميمج. . . ، قال أبو عمرو ابن العلاء: «قلت لرجل من بني حنظلةَ: ممن أنت؟ فقال: فقيمج، قال: فقلت: من أيهِم؟ قال: مرج، يريد: فقيمي ومري[4].

وتعمد بقيةُ بني تميم إلى النطق بالجيم ياء، فيقولون: يار في جار، وشيرة في شجرة، والصهاري في الصهاريج[5].

أما لغةُ أهل الحجاز: فالإبقاء على الحرفين دون تَصَرُّفٍ منهم في نطقهما. وأبدل بنو تميم: الطاء من التاء في نحو: فحصطٌّ وحصطٌّ في فحصتُ وحصتُ عند الحجازيين[6]. وقالوا: صاطع وصالغ في ساطع وسالغ، وصلخ في سلخ، والصاد أشد إطباقًا من السين. ونقلوا عن بنى كليب: أنهم يقولون: زقر في سقر[7]، والبيئةُ البدويةُ واضحةُ في مثل هذا القلب، فالزاى صوت رخوى مثل الصاد إلا أنه يختلف عنه لأنه مجهور، والبدويّ يميلُ غالبًا إلى الجهر في أصوات كلامه والإبانةِ عن مقاطعها.

---

(١) من بحث لعبد الغفار هلال عن تفسير بعض مشكلات الفصحى -مجلة كلية اللغة ع٦ ص ١٤٠.

(٢) نفسه ١٤٠.

(٣) صبحى الصالح- دراسات في فقه اللغة ٩٦ وما بعدها.

(٤) ابن جني- سر الصناعة- ١: ٢٣٤.

(٥) المخصص ١٤: ٣٤.

(٦) نفسه ١٤: ٢٦٨ وما بعدها.

(٧) سر الصناعة ١: ٢٠٨.

ويذهب أكثر علماء العربية إلى أن الإمالة إنما هي من خصائص لهجة أسد وقيس وتميم وعامة أهل نجد[1] وغيرهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها، ويمكن أن يُلْحَقَ بها بعضُ القبائل الحجازية ممن تقاربَتْ ديارُهم من ديار هذه القبائل البدوية، إذ يؤكِّدُ بعضُ الباحثين أن الإمالة من أوثق خصائص البدو، وهم إنما يجنحون إلى ذلك جَرْيا على عادتهم في عدم وضوحِ الأصوات والخلط بينهما، «ولا ريب أن الإمالة تخلطُ بين الصوتين فهي تجعل الفتحةَ قريبةً من الكسرة والألفَ قريبةً من الياء، وهكذا تُقَرَّبَ الأصواتُ أو تتجانَسُ ويحدثُ التناسبُ بينها، وهذا يساعد على سرعة النطق وعدم بذل مجهود عضلى كبير»[2]، كما أنه ضرب من الاشتراك الصوتى لا يُعْطَى به اللفظُ الممال حَقَّه من النغم الخاصِّ به، ومثلُ هذا الاشتراك في النطق بالأصوات لا يُسْتَغْرَبُ من قبيلة بدوية كتميم وإنما يستغرب منها العكسُ؛ لأن تحقيقَ جميعِ أصوات اللفظ وإعطاءها حقَّها من النغم طورٌ نهائي في صقلِ اللغة واستكمالِ أدواتها، فهو أجدرُ أن يكون وظيفةَ اللغة الأدبية المصفاة لا وظيفة لغة من البدو الرحَّل قابلة للتغير والتأثر والعدوى تبعًا لتنقُّلاتِ أصحابها الذين لا يَسْتَقِرُون في مكان»[3].

ويربط بعضُ الباحثين بين ميل القبائل النجدية التميمية إلى الضم في بعض الأبنية وبين ميل أهل الحجاز إلى الكسر فيها بمبدأ الحضارة والبداوة، فالتميميون إنما استهواهم الضمُّ لخشونته، في حين يَحْرِصُ أهل الحجاز على الكسر لرقته، وينص بعض الأئمة على أن المعاقبةَ -التي تعني إدخال الواو على الياء، والياء على الواو- قد كانت لغةً لأهل الحجاز، وإن لم تكن مطردةً في لغتهم[4].

من كل ما تقدم نرى أثر اتساع الرقعة الجغرافية المتحدثة بلغةٍ ما فيما يصيبُها من تطور صوتي أو قلب أو إبدال في بعض حروف كلماتها لتقارب بينها طبقا لظروف البيئة الجغرافية وهو ما يدعو إلى انشطار اللغة إلى لهجات واللهجات إلى أخرى،

---

(١) عبد الفتاح شلبي- الإمالة في القراءات واللهجات العربية- ٧٥ وما بعدها.

(٢) من بحث للدكتور عبد الغفار هلال- مجلية كلية اللغة العربية ع٦ ص١٥٠.

(٣) صبحي الصالح- دراسات في فقه اللغة ١٠١ وما بعدها.

(٤) صبحي الصالح- دراسات في فقه اللغة ٩٧.

والوضع الطبيعي لذلك أن يُعَلَّلَ باختلاف البيئات المستعملة للغة بعينها جغرافيًا، فقد تُؤَدِّي العوائقُ الطبيعية من أنهار وبحار وصحارى وجبال.. إلى ازدياد مسافة الخلف بين لهجات اللغة الواحدة، فَتَنْزَعُ كلٌّ منها إلى الاستقلال عن أخواتها لتسيرَ في طريقها إلى نهايته، وتعمِّقَ انتماءَ هذه اللهجات إلى مواطنيها، وبذا تساعد على نموها متميزةً بخصائصها عن سواها من اللهجات، وهذا ما حصل شيء منه في اللغة العربية إبَّان العصر الجاهلي حتى وجدنا العلماءَ العرب الذين نقلوا إلينا تلك اللغةُ يُعَدِّدُونَ لهجات معروفةً لقبائل معينة من سكان الجزيرة العربية: كتميم والحجاز وأسد وطيء والعالية وبني فقيم...، إذ ساعدتْ الصحراء أن تعزلَ مناطقَ كثيرة في الجزيرة العربية بعضَها عن بعض، فقلَّلَتْ بذلك من صور الاتصال بين أبنائها فوق ما سبتْه من حماية لكثير من قبائلها من الاتصال بأبناء الأمم المجاورة في الشمال أو الجنوب، فلم تجدْ مفرّا من الانعزال بنفسها والاستقلال بخصائصها في كثير من أنظمتها اللغوية[1].

ومعلوم أن لقلة الاتصال بين أبناء اللغة الواحدة -مهما كانت أسبابه- أثرًا واضحًا في اختلاف أنماط سلوكهم وعاداتهم الاجتماعية وطرق استعمالهم للغة، وهو ما يُهَدِّدُ بانشعاب اللغة الواحدة إلى لهجات..

وسيأتي الحديث عن ذلك فيما يلي:

عوامل اجتماعية:

وهناك صلةٌ واضحة بين البيئة التي تحتضنُ العنصرَ اللغويَّ وبين اللغة نفسها إذ تختلفُ باختلاف الفرد ومستواه العقلي والاجتماعي، بل إنها لتختلف باختلاف المستوى العقلي والاجتماعي للسامع أيضًا[2]، وقد دَلَّتْ الوقائعُ أن التفاوتَ الاجتماعيَّ بين الطبقات داخل الجماعة اللغوية يحتم وجودَ أثار واضحة في اللغة بحيث تتوزَّعُ فيها إلى لهجات متعددة رغم تجانس الوسط الاجتماعي إلى حد كبير[3]، فهو بسكانه وتعددِ طبقاتهم واختلاف عاداتهم وتقاليدهم وتنوع مشاعرهم

(١) جسبرسن -اللغة بين الفرد والمجتمع- بتصرف- ص٥٧ وما بعدها. وينظر أيضًا: في اللهجات العربية- لإبراهيم أنيس ٢٢ وما بعدها -بتصرف-.

(٢) جسبرسن- اللغة بين الفرد والمجتمع: ١٥٧.

(٣) مايه -علم اللسان ٤٤٣- تعريب محمد مندور.

الروحية والوجدانية وتباينِ طرق تفكيرهم في الحياة وأنماط السلوك. . . كل أولئك يترك آثاره على الأداة المستعملة فى التفاهم لدى كل فئة، غير أن الفروق بينها غيرُ واضحة نتيجةً لاختلاط هذه الفئات، وتلاقى لهجاتها على صعيد واحد، على أنها ما تلبثُ أن تظهر كلما مال المجتمع بمن فيه إلى العزلة بأنواعها المختلفة عامةً والاجتماعية خاصة، وحينئذ لا يجد أفرادُه مناصًا من أن تكون لهم لهجات متميزة لا تلبث بعد مرور فترة من الزمن أن تتطور تطورًا مستقلاً يباعد بين صفاتها ويشعبها إلى لهجات متعددة[1].

ففي العربية استطاعت موانعُ كثيرة في العصر الجاهلي -وحتى بعد ظهور الإسلام -أن تقلِّل من امتزاج القبائل داخل جزيرتهم امتزاج أمة واحدة، فتفرقت فى أنحاء الجزيرة لا يجمعهم شيء سوى رابطة العصبية لقبائلهم، فقدَّس كلُّ فرد منها ما يحقق ذلك الانتماءَ ولو كان في جانب اللغة، فالتزم كل قوم منهجهم في لغتهم الخاصة، وقاوموا جميع صور التفكك اللغوى، ولم يخضعوا عبر تاريخهم الطويل إلا للغة العامة وفى مناسبات معينة وعلى أيدي الخاصة من أبناء قبائلهم، «حتى إذا ما عادوا إلى بيئتهم تحدثوا إلى الناس فى الشئون العامة بمثل لهجتهم لئلا تنفر منهم النفوس؛ إذ يرونه عيبًا أن يخاطبوا قبائلهم بغير لهجاتهم[2].

ولهذا نرجح أن ما روى عن زيد الخيل:

تُجِدُّونَ خَمْشًا بَعْدَ خَمْشٍ كَأَنَّهُ عَلَى فَاجِعٍ مِنْ خَيْرِ قَوْمِكُمْ نُعَى

إنما التزم فيه أصل لهجته في إبدال كل ياء متحركة ألفًا، والأصل «نِعُي».

أما قوله:

وقد عَلِمَتْ مَعَدٌّ أنَّ سَيْفِي كَرِيهٌ كُلَّمَا دُعِيَتْ نَزَالِ[3]

فقد التزم فيه قياس اللغة العامة والمثالية المصطفاه حين خاطب بها قومًا من غير قبيلته، وإنما قياس لغته «دُعَتْ»[4].

(١) ينظر في بعض هذا: في اللهجات العربية- لإبراهيم أنيس- ٢١ بتصرف.

(٢) إبراهيم أنيس -في اللهجات العربية- ٤٦.

(٣) نوري حمودي القيسى -ديوان زيد الخيل- ٨٦ ط النجل.

(٤) حيث يقلبون كل ياء مفتوحة ألفًا فيقولون ههنا دعات فيلتقى ساكنان فتحذف الألف.
قال الشاعر: ونصطاد نفوسًا بُنَتْ على الكرم. . وسيأتى.

ويبدو أن هذه الازدواجيةَ كانت أمرًا مألوفًا عند بعض العرب حتى ليمكن لنا أن نقول بثبوت الروايتين في مثل قول كعب بن سعيد الغنوي:

فَقُلْتُ: أُدّعُ أُخْرَى وَأَرْفَعِ الصَّوْتَ جَهْرَةً لَعَلّ أَبَا المِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيْبُ[1]

وأبى المغوار، فإحداهما تمثل لهجة، والأخرى: جاءت على اللغة العامة وأمثال ذلك فيما وصل إلينا من كلام العرب كثير.

وكان لأسلوب حياة التنقل التي عاشها بدوي الصحراء وعدم الارتباط بالأرض إلا بقدر الحاجة إليها أكبر الأثر في ظهور صور جديدة للغة العرب داخل جزيرتهم، فالأعشى يروى عنه أنه قال:

وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَى وَبَارِ فَهَلَكَتْ جَهْرَةً وَبَارُ[2]

فأعرب على لغة بني تميم، وهو من قيس بن ثعلبة إلا أن منزله بديار بني تميم فأخذ بلهجة بعضهم في إعراب «وبار» حينئذ، وهكذا أضاف الأعشى إلى لهجته لهجةً أخرى، «والمتجاورون قد يُغْلِبُ على جَمَاعَتِهم لُغَةٌ أَصْلُها لِبَعْضهم»[2].

كما ساعدت عواملُ كثيرة على توزُّعِ حياة العرب الاجتماعية في الجاهلية واتخاذها أشكالاً متعددة، وكان لابد أن يستتبعَ ذلك اختلاف لهجات اللغة المستعملة داخلَ الأمة التي تَضُمُّ مثل هذه الفئات المختلفة، إذ تختار كلُّ فئةٍ ما يلائمُها من ألفاظ وأصوات حسب ظروفها الاجتماعية وبيئتها اللغوية، ففى الوقت الذى اختلف فيه ميزانُ التعامل بين فئات البدو وسكان الحاضرة فيما يختص بأمر الأنثى مثلاً حيث وجدنا عربيَّ الصحراء يحيط المرأة بالمحافظة التامة، ويَعُدُّها من أخص محارمه؛ إذ تقوم -من أجل حمايتها- الحروب وتُشَنُّ الغاراتُ لا لشيء سوى أن شاعرًا من بني فلان قد شبَّبَ بها أو ذكرها في مجمع، لهذا وغيره اختُصَّتْ المرأةُ بميزات داخل المجتمع البدوي لم تتوفر أكثرُها للمرأة العربية التي كانت تسكن الحاضرةَ في جزيرة العرب.

---

(١) البغدادي -الخزانة- ٤: ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) شرح الكتاب للسيرافي -نسخة مصورة برقم ٢٠٥- مكتبة جامعة الإمام المركزية. نحو.

وكـان لابد أن يرافق ذلك الحال الذي عـاشتـه المرأةُ في ذينك الوضـعين بعض الاختلاف في لهجـات بعض القبائل العربية، ومن هنا وجدنا أمـثال: الكسكسة، الكشكشة في خطاب المؤنـث لتَتَمَيَّـزَ في الخطاب عن المذكر، كمـا فعلوا ذلك في الفتحـة والضمة والكسرة اللاحقـة لضمائر التكلم والخطاب في العربية المشـتركة، ولعل في ذلك بعض الإشارة إلى ما يتمتع به كلٌّ منهما من حقوق وواجبات.

وَوُجِـدَتْ بعضُ الألفـاظ والأصوات فـي لهجـات سكان البـادية لانجـدها في لهجات غيرهم بحـيث يمكنُنَا أَنْ ننميها إلى طابع الصحراء ووضعها المُمَـيَّز، فمثلاً نجد: المَفازة: تطلق عند العرب على المنجاة والمهلكة والفلاة التي لا ماءَ فيها، وهي واضحـة في المنجاة غـير أن إطلاقـها على المهلكة والفـلاة التي لا ماء فيـها غـير واضح، ولكن سكان البادية قد تفاءلوا ببعض الألفاظ، فكنُّوا بها عن غيرها مما قد يشعرهم بالسوء، كما أطلقوا لفظ «السليم» على المريض. وهكذا يمكن أن يقال في الناهل بمعنى الشارب إنما نشأ فى ظل بيئة صحراوية تستعمل الناهلَ بمعنى الشارب تفاؤلاً.

وتميل لهجـاتُ سكان البادية إلى اسـتعمـال الأصوات الشديدة والمجـهورة في مقابـل الأصوات المهموسـة والرخوة بحيث يُرَجَّحُ أن هناك عواملَ اجـتماعيـةً قد تكون وراء إبدال صوت مـن آخر، إذ فرض تجـاور منازل سكان الحواضـر عليهم خفض الأصـوات وهمَسهـا والتأنيَ فـيها بينمـا اضطر سكانُ البادية إلى المهـجور والشديد منها وسرعةِ النطق بها[1].

ومَهَّدَ اختلافُ طبقاتِ العرب في العصر الجاهلي إلى بروز اختلافات لهجية في اللغة العـربية تسببتْ عنِ اخـتلاف فئاتهم في مناحي التـفكير والوجدان ومـستوى المعيشة والبيـئة الاجتماعية والعادات، وما تزاوله كل طبـقة من أعمال وتضطلع به من وظائف تدفعُـهم إلى توسيع دائرة نشاطهم واحتكاكـهم بسواهم من أبناء الأمم المجاورة وبأبنـاء الطبقات الأخـرى من مواطنيـهم أيضًا، وهذا مـا أَدَّى -مع مرور الوقت وتوفر الدواعي إليه- إلى بروز لهجـة قرشية خالفتْ بقيةَ اللهـجات العربية في كثـيرٍ من أنظمـتها وقـوانينها اللغوية، وقـد وجدنا بعضَ الاخـتلاف بين هذه

(١) من بحث للدكتور عبد الغفار هلال نشر بمجلة اللغة العربية ع ٦ ص ١٣٠.

اللهجة ولهجة مكة التي ترتبط بها بأدنى سبب، فقد خَفَّفَتْ اللهجةُ الحجازية الجديدة الهمز في نحو: نَبِئ، وَبَرِيئَة على حين حققتْه اللهجةُ المكية[1]، ونسب إلى أهل مكة «هاتينِّ»[2] فى «هاتين» من اللغة الحجازية الفصحى... وغيرها من ألفاظ وأصوات حروف بعض الكلمات، واقتبست القرشيةُ المنتقاة أصواتًا وألفاظًا وتراكيب.. من جميع أخواتها، وزادت عليها بما أخذته من لغات الأمم الأخرى التي ارتبطتْ بها اقتصاديًا، والحياة بحاجاتها ومتطلباتها كفيلة بأن تدعو العربي لأن يبتدع كلمات جديدةً تُلَبيّ بها مطالبُ الحياة سواء في البادية أم في الحاضرة، «فليس بمستغرب إذن أن نجد باحثًا كريناان في دراسته للغات السامية تأخذه الدهشة، وهو ينقل عن الأستاذ «دوهامر» أنه توصل إلى جمع أكثر من «٥٦٤٤» لفظًا لشئون الجمل رفيق الأعرابي في الصحراء ومؤنسه في وحشته ومعاونه على حياته القاسية، فالإبل هي عماد الحياة البدوية حتى لتكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل»[3].

ويعجب الأستاذُ نولدكه: بغنى معجم اللغة العربية القديم إذا وُضِعَ في الحسبان مقدار بساطة الحياة العربية وشئونها وتَوَحُّد مناظر بلادهم واطرادها اطرادًا يدعو إلى السآمة والملل، ولكنهم مع ذلك وَضَعُوا لكل تغيير وإن قل كلمةً تدلُّ عليه»[4].

ولعل امتدادَ العرب على بقعة من أرض الجزيرة الواسعة طوال فترة وجودهم على هذه الأرض، وتشابهَ ظروفهم الاجتماعية حينا وتباينَها حينا آخر مع الاحتفاظ بمقومات القبيلة، قد جعل الأوصافَ تتعدد والأسامى تكثر متفقةً أحيانًا ومختلفة أحيانًا أخرى، وهو مما يدعو إلى تعدُّد اللهجات وافتراق بعضها عن بعض، وبوحي من ذلك فلربما كان المتخلف لهجةً لقبيلة خاصة بها انقرضت أو غلبتْها لهجةٌ أقوى منها، والظروف الاجتماعية في تطور عبر القرون، واللغة تتبُع الوسطَ الاجتماعي وتتفاعل معه، ولا تعدو إلا أن تكون نشاطًا اجتماعيًا ينزع إليه الإنسانُ بغيةَ أن يثبت وجودَه الاجتماعي بأي لون من ألوان ذلك النشاط ينفعل بالتقاليد

(١) الكتاب ٢: ١٧٠.

(٢) ابن خالويه -ليس في كلام العرب ١٧٠.

(٣) صبحي الصالح -دراسات في فقه اللغة ٢٩٣.

(٤) أحمد أمين -فجر الإسلام: ٥٥.

والظروف والبيئة، وإليه قد يُعْزَي كلُّ تطورٍ يصيبُ اللغاتِ أو يدفع بها إلى الانشعاب إلى لهجات.

عوامل تاريخية:

تؤكد الدلائل على أن كل لغة قد تغيَّرتْ بمرور عدة قرون على استخدامها تغييرًا يعتد به، وتؤدِّي استعمالاتُ الأفراد لها مع اختلاف تكوينهم الخلقي وتباين مستواهم الطبقي -كما أوضحنا سابقًا- إلى بروز اختلافات في أنظمة اللغة الصوتية والإفرادية والتركيبية والدلالية، فالعربية الفصحى إنما تمثل مرحلةً من مراحل تطور اللغة رُصِدَتْ في فترة من فترات تاريخها اللغوي الطويل، والمتأملُ في الآثار التي وصلتْ إلينا ممثلة لحالة العربي في تلك الفترة يجد اختلافًا غير يسير في استعمال أبناء القبائل العربية للغتهم صوتيًا ونحويًا ودلاليًا.

فقالوا: هتلتْ السماء وهتنتْ، وأصيلان وأصيلال، والسهك والسهج، وعانجتُه وعانشته، ونَشَصَتْ المرأة على زوجها ونشزَتْ...

ورووا عن بعض الجاهليين:

نَحْنُ اللَّذُونَ صَبَّحُوا الصَّبَاحَا يَوْمَ النُّخَيْلِ غَارَةً مِلْحَاحَا[1]

وقال عروة بن الورد:

وَأَهْوَنُهُمْ وَأَحْقَرُهُمْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَا لَهُ نَسَبٌ وَخِيْرُ[2]

ورووا عن بعضهم:

بِقِدْرٍ يَأْخُذُ الأَعْضَاءَ تِمَّا بِحَلْقَتِهِ وَيَلْتَهِمُ الفَقَارا[3]

فذكر «القدر» في حين نسبوا إلى ابن مقبل:

وَقِدْرٍ كَكَفِّ القِرْدِ لاَ مُسْتَعِيرُهَا يُعَارُ وَلاَ مَنْ يَأْتِهَا يَتَدَسَّمُ[4]

(١) الشنقيطي -الدرر اللوامع في شرح شواهد همع الهوامع ١: ٥٦.

(٢) ابن هشام- أوضح المسالك ٢٤١.

(٣) الفراء- المذكر والمؤنث ٨٢.

(٤) الكتاب ٣: ٧٧ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فأنث، وأشباه ذلك في كلام العرب كثير -وسيأتي.

ورووا عن بعض العرب: أنهم كانوا يستعملون: الوثوب بمعنى القعود في لغة حمير، وبمعنى الطمر في لغة العدنانيين.

كما يستعمل الشعب: بمعنى الافتراق عند بعضهم، وبمعنى الاجتماع عند آخرين[1]... وسيأتي ذلك.

وتسهم العوامل التاريخية بنصيب كبير في تطوير اللغات واختلاف لهجاتها المتشعبة عنها كالذي أوضحناه.

وعادةً ما تبدو تلك الاختلافات في شكل تغييرات تحدث نتيجة بعض العيوب الخلقية واختلاف أعضاء النطق بين أفراد الجماعة اللغوية والتطور الطبيعى للظواهر النفسية، وكذا الأخطاء المصاحبة لتَعَلُّمِ الأطفال لغةَ أمتهم، وهذه الاختلافات على صغرها في كل مرة تتجمع وتنمو مع مرور الوقت وتعاقُبِ الأجيال، «فلكل جيل تجديداتٌ حتى إنَّ الأشخاص العاديين عندما تتفاوتُ أسنانُهم يتبع ذلك تفاوتٌ ملحوظٌ في لغتهم[2]»، ولهذا فليس بمستغرب أن يقال إن نحو: ملدم في مردم، ومدهه في مدحه، واطرهم فى اطرخم... ورعملي في لعمري ورغسه في غرسه، وصقع في صعق...، إنما جاءت نتيجة ما ذكر آنفًا حتى استقرت في لغة الخلف ثقة بفصاحة السلف لِتَصِلَ إلينا -مع مرور الوقت- في مظاهر مختلفة للغة الفصحى.

وربما كان لكثرة الأفراد الذين يتكلمون لغةً مّا علاقةٌ بما يصيب لغتهم من تَغَيُّر، إلا أن قسطًا مهمّاً من ذلك التغير إنما يأتى نتيجةَ ما يَعْمَدُ إليه متكلمو اللغة نفسها من التجديد أو الزيادة على أصل الموجود منها للحاجة، فامتدادهم على بقعة واسعة من الأرض واختلاف تضاريسها وعواملها المناخية ومدى إسهامها في اتصال أبناء اللغة الواحدة أو تقاطعهم يؤثِّر بدوره -مع توافر العوامل الأخرى أو انعدامها -على بقاء اللغة محتفظة بأنظمتها، أو يعجل بانشعابها إلى لهجات ولغات متعددة، فمع أنه من غير الصواب -عند علماء اللغة- أن يقال بأن التجديدَ اللغوى

(١) السيوطي -المزهر ١: ٣٩٦ وما بعدها..

(٢) مايه -علم اللسان- ترجمة محمد مندور ص ٤٤٤.

يصدرُ عن الفرد فمن الحق الذي لا مريةَ فيه أن كل فرد يدخل في لغته جزءًا من التجديد خاصًا[1] به بناء على أن حياة جماعته اللغوية فى تطور وتقدم مستمرين، وتجدٌّ لذلك ألفاظٌ ومسمياتٌ جديدة لتواكبَ الحياةَ في كل زمن. وسيأتي الحديث عن ذلك، والنتيجة الحتمية لجميع ذلك أن تجدَّ في لغة الجيل الناشئ ألفاظٌ وأصواتٌ ومسمياتٌ لم تكن معروفةً في لغات الأجيال السابقة له وهكذا... حتى بات مقررًا في علم اللغة أن جيلين فقط لا يمكن أن يحتفظوا بلغة أمَّتهم في كل خصائصها الصوتية والنحوية والدلالية دون أن يدخلوا عليها ابتكاراتٍ قد تَنْأَى بها قليلاً أو كثيرًا عن صورتها الأولى.

كما أن الأمم تمر عليها فتراتٌ من القوة أو الضعف سياسيًا واقتصاديًا وحضاريًا فيؤثِّر ذلك على حياة جماعتها اللغوية، فتتطورُ لغاتُها تبعًا لذلك لتلبي حاجات الاستعمال ودواعيه مما يفرض عليها صفةَ الابتكار والتجديد، ويصاحب ذلك تبدلاتٌ تطرأُ على اللغة، وهي وإن كانت لا تحدث إلا ببطء شديد وخلال قرون وأجيال[2] إلا أنها حقيقة لا محيص عنها، ومما يُسْتأْنَسُ لذلك أن اللغويين من علماء العرب قد رَدَّدُوا كثيرًا في كتبهم ذكر اللغة الحجازية القدمى -في ما النافية مثلا- وهم إنما يعنون بأن الحجازية الأولى تعملها في المبتدأ والخبر فترفع الأول وتنصب الثاني إجراءً لها مجرى ليس في الإعمال، ولكن الحجازية المتأخرة تراجعتْ عن ذلك في مرحلة من مراحل عمرها وقبل نزول القرآن بقليل وأوجبت دخول الباء الزائدة في خبر ما هذه حتى إن النحويين لم يجدوا شاهدًا على نصب الخبر في أشعار الحجازيين غيرَ قول الشاعر:

وَأَنَا النَّذِيرُ بِحَرَّةٍ مُسْوَدَّةٍ ... تَصِلُ الجُيُوشُ إِلَيْكُم أَقْوَادَهَا

أَبْنَاؤُهَا مُتَكَنِّفُونَ أَبَاهُم ... حَنِقُو الصُّدُورِ وَمَا هُمْ أَوْلاَدَهَا

وقال الفراء: وهو سامع لغة حافظ ثقة: لا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء، قال الزمخشرى: اللغة القدمى الحجازية، فالقرآن جاء باللغتين القدمى وغيرها»[3].

---

(١) فندريس -اللغة ٢٩٦.

(٢) محمد الأنطاكي- الوجيز في فقه اللغة ٢٧٦.

(٣) أبو حيان -البحر المحيط ٥: ٣٠٤.

ونقل عن الكسائي: «أنه قال في طلع يطلع: إنها قد ماتت بموت من يقولها من العرب»[1]، ولعل فيما ذُكرَ وغيره ما يكشف عن مراحل قطعتْها العربيةُ على أيدي أبنائها تُبْدِعُ خلالها وتطوِّرُ وتُدْني وتبعد لتواكبَ حاجاتِ الاستعمال ودواعيه، وقد أدرك بعضُ علماء اللغة العربية الأوائل هذه الحقيقة وحاولوا عن طريقها تفسير كثير من الظواهر اللغوية التي رأوا أنها قد وردت على أَلْسِنَة بعضهم مخالفة بوجه من المخالفة الاستعمال الشائع عند معظم العرب، فقالوا «بإمكان أن يكون ذلك قد وقع لهذا الإنسان في كلامه من لغات قديمة طال عهدُها وعَفَا رسمها وتأبدتْ معالمُها خصوصًا وأن أهل كل واحدة من هذه اللغات عددٌ كثير وخَلْق من الله عظيم[2]، غير أنه قد ذهب أكثرُه بذهاب أهله، فتفرقتْ لغاتُهم وتوزعت لهجاتٍ لتصل إلينا في هذه اللغة العربية الفصحى التي تُعْتَبَرُ مزيجًا من لهجات كثيرة متنافرة تختلف بعضها عن بعض بوجه من المخالفة بعد أَنْ فَنِيَ أَصْحَابُ اللهجات وبادوا.

عوامل فردية:

وتأتي أهميتُها -في اختلاف اللهجات- نتيجةَ ما أوضحناه سابقًا من تلك الفروق التي توجد عادةً في طريقة النطق بين الأفراد، فإليها تُعْزَى بعضُ التبدلات التي تصيب اللغةَ التي يتكلمها أفرادٌ مختلفون في عصور مختلفة، وأهميةُ هذه العوامل الخلقية والاختلاف في طريقة النطق بين الأفراد فيما يصيب اللغة من تطور لا يُنْكَرُ، بيد أن قسطًا مهمّاً من هذا التطور اللغوي الذي يقع على يد الفرد من الجماعة اللغوية إنما يأتي نتيجةَ -ما ذكرناه آنفًا- من دواعي الحاجة المستمرة إلى الإيجادِ والابتكارِ للوفاء بمتطلبات الحياة وحاجاتها المتجددة، كما أن الفرد يتأَثَّرُ بما يحيط به من مؤثرات وعواملَ خارجية فيعتريه الرضا النفسي والبهجةُ والمتعةُ والقلقُ والضيقُ والمشكلات المؤرقة.

وتبدو آثارُ ذلك في نطقه «فكلما مالَ إلى الدِّعة والاستقرار مالت أصوات لسانه إلى الرخاوة، وإذا اعتزَّ بجبروته وقوته مالت أصوات لسانه إلى الشدة[3].

---

(١) حاشية الطالب ابن حمدون: ٦٠.

(٢) ابن جني -الخصائص ١: ٢٤٤، ٣٧٢.

(٣) محمد الأنطاكي -الوجيز في فقه اللغة: ٢٧٩.

ولعل ما حدث في العربية -ما بين أيدينا- من بعض صور الإبدال والقلب والانحراف في نطق بعض الأصوات والابتعاد بها عن مواقعها مما يترتب عليه اختلافٌ ملحوظ بينهم في نطق الألفاظ وتعددٌّ في مظاهرها وإبدال صوت مكان آخر إنَّما يرجع شيءٌ منه إلى ما يصدر عن الفرد.

فقد قيل: إن الأخطاءَ اللغوية التي تقع بين الأفراد ولا يُفْطَنُ لها لدقتها وتشابُهِ خصائصها مع خصائص اللغة المستعملة فَيُهْمَلُ أمرُ إصلاحِها تَزْدَادُ وضوحا مع مرور الوقت فتدخلُ في لغة الأجيال التالية كانتقال طبيعي من سلف إلى خلف»[1].

كما أن الأخطاءَ اللغوية مسئولةٌ أيضًا عما يصيب اللغةَ من تطورٍ دلالي واختلافٍ في صيغها الصرفية والنحوية والدلالية، فرغبتُه الصادقة في التعبير عما يدور بخلَده مع جهله أحيانًا بالموروث منها كلُّ أولئك يدفعه -في بعض الأحيان- إلى الخروج عن المألوف وتخطِّي قوانينه، وربما الخطأ فيه والتخليط والإتيان بما لم يُسْبَقْ إليه من أبناء قومه، ومن خلال استقرائنا لبعض ما ورد عن العرب نجد أن شيئًا مما قلناه قد وقع من بعض فصحائها فارتجلوا ألفاظًا لم يسبقوا إليها على ما وصل إلى علماء العربية، وابتكروا كلمات لم يأت بها أحد إلاّ هم، وعدَّدَ الأصمعي حروفًا من الغريب قال:

- لا أعلم أحدًا أتى بها إلا ابن أحمر الباهلي منها: الجَبْر، الدَّيْدَبُون مَارِيَّة، البَابُوس، كَأْسٌ رَنَوْنَاة، الرُّبَّان، المَأْنُوسَة... وعلق ابن جني على هذا القول من الأصمعي بقوله: والقول في هذه الكلم المقدم ذكرها وجوب قبولها وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة ابن أحمر، فأما أن يكون شيئًا أخذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منه... وأما أن يكون شيئًا ارتجله ابن أحمر، فإن الأعرابي إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به فقد حكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظًا لم يسمعاها ولا سبقا إليها[2].

(١) إبراهيم أنيس -من أسرار اللغة ٤١.

(٢) ابن جني -الخصائص ٢: ٢١ وما بعدها.

ويرى ابن جني: أن الخروج من بعض فصحاء العرب على الشائع المألوف من فصيح كلامهم كان أمرًا معلومًا حصوله في لغة العربي، فما وصل إلينا من لغتهم وظاهره يأباه القياس -وقد كثر في كلامهم- فإن مجازه أن يكون من نطق به لم يكن قياسه على لغة آبائهم -في أحد الوجوه[1].

ويَعْتَقِدُ بعضُ علماء العربية أن قياسًا خاطئًا قد وقع في لغة العرب، وانبنتْ عليه صيغٌ ومفرداتٌ كثيرة دخلتْ فى دائرة المقبول منها على خطأ فردَّدَها «الفصيح الذي سمع لغة غيره مما ليس فصيحًا، وقد طالت عليه وكثر لها استماعه فسرَتْ في كلامه ثم تسمعها أنت منه وقد قويت عندك في كل شيء من كلامه غيرها فصاحتُه فيستهويك ذلك إلى أن تقبلَها منه على فساد أصلها الذي وصل إليه منه»[2].

والشواهد -فيما وصل إلينا من كلام العرب- على ذلك كثيرة بعضها نسبوها إلى الوهم، وأخرى أطلقوا عليها غلطًا وفسادًا، وأشياء كانت من نوع القياس الخاطئ، فسيبويه يذكر أن قومًا من العرب يغلطون فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون، وإنما توهموا ذلك كما توهم من قال:

وَلاَ سَابِقٍ شَيْئًا إِذَا كَانَ جَائِيَا

فتوهم زيادة الباء فى الخبر المعطوف عليه لأنها كثيرًا ما تدخل ههنا[3]، ومن ذلك همزهم مَصَائِبَ، وهو غلط، وذلك أنهم شبهوا مصيبة بصحيفة فكما همزوا صحائف همزوا مصائب[4]، ونقل عن الكسائي قوله -في تعليل منع أشياءَ من الصرف- وهو يتلخص في أن العرب إنما منعتْ أشياءَ من الصرف لتوهُّمِ الزيادة في الهمزة فعاملوها معاملة حمراء[5].

وعقد ابن جني فى الخصائص بابا سمّاه «أغلاط العرب» وذكر فيها صيغًا وألفاظًا خرج فيها بعض الفصحاء منهم على قوانين العربية المألوفة ومعانيها المشهورة»[6].

---

(١) ابن جني -الخصائص ٢: ٢٤ وما بعدها.
(٢) ابن جني -الخصائص ٢: ٢٦.
(٣) الكتاب ١: ٢٩٠- ط بولاق.
(٤) الخصائص ٣: ٢٢٧.
(٥) الرضي -شرح الشافية ١: ٢٩.
(٦) الخصائص ٣: ٢٧٣.

وكذا نبَّه على ذلك ابن فارس في كتابه «الصاحبي»[١].

والسيوطي في مزهره[٢]. وقبل ذلك فعل ابنُ دريد في جمهرة اللغة[٣]. ولم يَسْتَبْعِدْ أبو علي -رحمه الله- وجْهَ ذلك من بعض فصحائهم وقال: إنما دخل هذا النحو في كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يعتصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به فربما استهواهم الشيءُ فزاغوا به عن القصد[٤].

ولعل من استهوائهم الشيء ماحدا بعمارة بن عقيل أن يأتي بوزن لجمع الريح ما سُبِقَ إليه، فقد أنشد عمارة قصيدة من شعر وقع فيها لفظ «أَرْيَاح» جمعا، فاعترضه أبو حاتم السجستاني قائلاً: هذا لا يجوز إنما هو الأرواح بالواو «فقال عمارة معتذرًا: لقد جذبني إليها طبعي»[٥].

وهذا إن حدث شيء منه في اللغة العربية -على ما رأينا- فهو قليل جدًا، فقد كان العرب يصلح بعضهم ما قد يقع فيه الآخرون من خطأ في اللغة أو تَوَهُّمٍ في القياس أو فساد الطبع في صوغ بعض التراكيب.

وقد سبق كيف أن أبا حاتم السجستاني اعترض على عمارة في جمعه الريح على أرواح بالواو.

ونذكر القصة المشهورة التي حدثت للنابغة الذبياني -فيما زعمه الرواة- فقد قالوا: لما قال النابغة:

مِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِي عَجْلاَنَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ

وقوله في البيت الثاني:

زَعَمَ البَوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا وَبِذَاكَ خَبَّرَنَا الغُرَابُ الأَسْوَدُ

---

(١) ابن فارس- الصاحبي في فقه اللغة: ٤٦٨.

(٢) السيوطي -المزهر ٢: ٢٩٨.

(٣) ابن دريد- الجمهرة في اللغة ٣: ٥٠٣.

(٤) ابن جني -الخصائص ٣: ٢٧٣.

(٥) نفسه ٣: ٢٩٥.

هابوه أن يقولوا له لحنت أو أكفأت، فعمدوا إلى قـينته فقالوا: غنيه، فلما غنته بالخفض والرفع فطن، وقال:

وَبِذَاكَ تَنْعَابُ الغُـرَابِ الأَسْوَدِ[1]

والشواهد على ذلك كثيرة تجل عن الحصر.

ومع ذلك نظن أن جـذب الطبع الذي عـبَّـر عنه عمـارةُ في رده السـابق على السجستـاني كان -مع ما ذكره ابن جني- قد دعا بعضهم حـتى الفصحاء منهم أن يخرجوا علـى المألوف من كلامهم خطأ وتوهمًا المرة تلو المرة حـتى سرى ذلك في كلامهـم، وقبلتْه نفوسُـهم، ولم تتحامه طبـاعهم، فأضاف كل منهم إلـى رصيده اللغوي رصـيدًا آخر عن طريق سلسلة مـن الأخطاء والتوهُّم، أو التخليط أحـيانًا أخرى -لاسيما في فترات من تاريخ العربية الطويل- فافترقتْ بذلك اللهجاتُ عن اللغة الأم، وتعمَّقت خصائصها، وتطورت مستقلةً عما سواها وإن كانت أصلاً في القديم واحدة.

عوامل الصراع اللغوي:

ينشأ الصراعُ بين اللغات أو الـلهجات -عادة- نتيجةَ مـا يتاحُ لأبنائها من فرص الاحتكاك والاخـتلاط عن طريق اتصال شـعوبها بعـضها ببـعض، وقد يكون هذا الاتصالُ سلميًا نتيجة تبادل المنافع واجـتلاب المصالح، وقد يكون حربيًا يُسْبَقُ بغزو منظم وسيطرة مسلحة، وتتباينُ درجاتُه عنفًا أو ضعفًا، والنتيجة الحتمية هي صراع بين لغات الفـريقين، وتختلف نتائجُه باخـتلاف أحوال هذا الصـراع وأَمَدِه ومدى تَقَبُّل إحداهما لتأثـير الأخرى، وأيّا ما تكن النتيجة فإن المنتصـرة لن تخرج سليمةً في جميع نظمها كما كانت عليـه من قبل، بل إن طول احتكاكها بالمغلوبة يجعلُها تتأثَّر بها في كـثير من مظاهرها وبخاصة في مفـرداتها وأساليبها. فـقد يحدث أن تستعير المنتصرةُ بعض الكلمات والأساليب من أخـتها المهزومة، وتتأثَّرُ بها في كثير من أساليب القـول وعادات النطق، إذ ينالُ ألفاظَهـا كثيرٌ من التـحريف في ألسنة المتكلمين الجُدُد فتنحـرف قليلاً أو كثيرًا -على حسب قوة هذا الصـراع أو ضعفه- عن صـورتهـا الأولى في أصـواتهـا ودلالاتهـا وأسـاليب نطقـهـا ممـا يعـجِّل

(١) أبو زيد محمد بن أبي الخطاب -جمهرة أشعار العرب ٦٣ وما بعدها ط. بيروت.

بانشعابها إلى لهجةٍ جديدة ذاتِ عادات لغوية متميزة قد تصبحُ مع مرور الزمن لغةً مستقلة تماما عن اللغة الأولى.

ولعل هذا هو ما حدث للغة العربية الفصحى (لهجة قريش)؛ فقد نَجَمَ عن اتصال القبائل العربية في الجاهلية، واجتماعهم على صعيد واحد في مواسم الحج إلى أصنامهم في مكة من أرض الحجاز وفي الأسواق التي كانت تُعْقَدُ في مواضعَ عُرِفَتْ أوقاتُها عندهم على مدار السنة وفي جهات متفرقة من نواحي الجزيرة آنذاك، أن تأَثَّرَتْ لهجاتُهم بعضها ببعض، واشتبكَتْ في صراع لغوي عنيف بتغلب لهجة قريش، في -رأي من قال ذلك- نتيجة ما توفر لها من سلطان ديني وهيمنة اقتصادية ونفوذ سياسي... وسيأتي الحديث عن ذلك.

بيد أن هذه القرشية لم تخرج سليمة في جميع أنظمتها اللغوية بل تأثرت باللهجات التي اشتبكت معها وتخلف عن ذلك كثير من آثار اللهجات المهزومة.

ففي لغة التنزيل -وهي التي قيل إنها لهجة قريش- نجد مظاهر للهجات عدة قبائل: فقد حققت نحو: سَأَلَ سَائِلٌ، وَخَاسِئِينَ، والصَّابِئُون... والقرشية الجديدة لا تحقق.

وحوت مظاهر لهجية في جانب النحو: فأهملت فيما صح نقله من قراءة «إِنَّ هذَانِ لَسَاحِرَانِ» على لهجة بني الحارث بن كعب وجماعة من قبائل العرب[1]، والحجازية الفصحى لا تهمل.

وورد في القرآن قوله تعالى: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ [الأنبياء: ٣] على رفع الذين بأسروا والإتيان بلفظ الضمير في الفعل على لغة: أكلوني البراغيث، وهي لأزد شنوءة، وقبائل أخري من العرب[2].

وتضمنت ألفاظًا كثيرة وردت بلهجات بعض القبائل العربية كالأَرائِك، الأَبّ، التَخَوُّف، البَعْل، الرَّهْب، نَكَص[3]....».

وسيأتي الحديث عن ذلك.

---

(١) مكي بن أبي طالب- إعراب مشكل القرآن ٢: ٩٩، شرح الفصل ١: ١٢٦.

(٢) إعراب مشكل القرآن ٢: ٨١.

(٣) السيوطي -الإتقان ١: ١٣٥ وما بعدها.

ومن ناحية أخري: مَهَّدَ اتصالُ القبائل العربية واجتماعُ أبنائها في مكان واحد - كما ذكرنا- إلى تَأَثُّرِ لهجاتها بعضها ببعض ونشأة لهجات أخرى حيث يتلاقى أصحابُ اللهجتين فيأخذُ كُلٌّ منهما بعضَ ما وَجَدَهُ عند الآخر، وقد يقتصر عليه، «والعرب ليسوا سواء في تقبل الواحد منهم لهجة غيره فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه، ومنهم من يقيم على لغته أَلْبَتَّة، ومنهم من إذا طال تكرُّر لغة غيره عليه لَصِقَتْ به ووجِدَتْ في كلامه»[1]، وكم سخر ابن جني من أولئك الذين لم تقم عندهم فكرة أنه من الممكن أن تجتمع لغات العرب وتتلاقى بواسطة أصحابها فينشأ عن ذلك تراكيب جديدة على أصل الوضع[2].

وللصراع اللغوى أكثر من صورة:

١- فقد يحدث نتيجةَ الجوار: إذ يُتيحُ تجاوُرُ شعبين مختلفي اللغة أو اللهجة فُرَصا كثيرة لإنشاء صلات القربي، وتبادل المنافع مما ينتج عنه اتصالٌ بين أفراد هذين الشعبين، فقد يكون سببًا مباشرًا في لغتيهما إحداهما بالأخرى في مجموعة من الألفاظ والتراكيب وعادات النطق، وبمقدار ما يطولُ أَمَدُ الاحتكاك بينهما، أو يكون الصراعُ بينهما عنيفًا والمقاومةُ قويةً من جانب اللغة المقهورة يكون التأثيرُ قويًا، ويَقِلُّ كلما قَصُرَتْ مدة النزاع أو خَفَّتْ وطأته، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة[3].

٢- وقد يحدث الصراعُ نتيجةَ غزو شعب لآخر وفرض سيطرته السياسية والاقتصادية والفكرية... عليه، فتشتبكُ اللغتان أو اللهجتان في صراعٍ ينتهي إلى إحدى نتيجتين: فأحيانًا تنتصرُ واحدةٌ منهما على الأخرى فتصبح لغةً للجميع، وأحيانًا لا تَقْوَى واحدةٌ منهما على رسيلتها فتعيشان معًا[4].

والعرب في جاهليتهم قد انبَنَتْ حياتُهم على أساس قبلي «وهذه القبائل في نزاع دائم، وقد تتحالف القبيلة مع القبيلة أو قبائل أخرى للإغارة على حلف آخر، أو لرد غارةٍ أو نحو ذلك من الأغراض»[5].

---

(١) ابن جني- الخصائص ١: ٣٨٣.
(٢) نفسه ص: ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٨٠.
(٣) وافي - علم اللغة: ٢٣٤.
(٤) نفسه ٢٣٠.
(٥) أحمد أمين - فجر الإسلام: ٤.

وقد تَدْفَعُ ظروفُ حياة القبيلة العربية إلى الرحيل، ويستتبع جميعُ هذا اتصال بالقبائل الأخرى وتأثر لهجاتها بعضها ببعض، والنتيجة المتوقعة -غالبًا- هي أن يصلَ بها الأمرُ إلى وجود مجاميعَ لغويةٍ تزدادُ وضوحًا يومًا بعد يوم حتى تنتهي إلى لهجات لها خصائصُها ومقوماتها، فيتولد عن اللهجتين ثالثةٌ ومن الثلاثة رابعة. . . ، فتنشأ بذلك أنواعٌ جديدةٌ من اللهجات تتخذ من السابق أساسًا لها وتندَفِعُ مطَّورةً من خصائصها مكون لمقوماتها الخاصة بها.

فالقرشية -التي سميت بالفصحى عند بعض الباحثين- لم تخرج بعد انتصارها -نتيجة ما توفر لها من عوامل- سليمة من آثار اللهجات العربية التي تصارعت معها، بل هي -بوضعها الذي وصلت إليه -لهجةٌ جديدة قامتْ على مزيج من لهجات عِدَّة تداخلتْ فكوَّنَتْ ما أصبح يطلق عليه بالعربية الفصحى.

وبالمثل «فقد نال القرشيةَ الأصليةَ في ألسنة أبناء القبائل الأخري بعضُ التحريف تحت تأثير لهجاتهم الأولى وعاداتهم المتأصلة في النطق. . .»[1]. فكان أن شجَّع في بروز لهجات مختلفة فيما بينها باختلاف القبائل ومساكنها، فالتميمي: ينطق بالهمزة من «أن» الحجازية- عينًا[2]، في حين يبدلها الطائي في نحو هيّاك «إياك»[3].

والفقيمي ينطق بالياء من نحو: بِالْعَشِيِّ والإبْكَارِ- جيما[4].

وكلب تقلب السين من نحو: مَسَّ سَقَر- زايا. وبنو العنبر تقلب السين من نحو: ساطع صادًا. . .»[5].

والهذلي ينطق بالحاء من نحو: حتى حين- عينا[6].

وقد تعْظُمُ أهمية هذا التأثير أو تَقِلُّ، وقد تشملُ كُلَّ منطقة الجماعة اللغوية وقد تقتصر على مساحة معينة من تلك المنطقة إلا أنه مع مرور الوقت تَخْلُدُ بعضُ الآثار اللغوية المتخلفة عن الدخيلة فَتُسَهِّلُ في المستقبل لانشطار لهجي يكون نواته ذلك الاتصالُ الذى قد كان بينهما.

---

(١) وافي -فقه اللغة ١٢٢.
(٢) ابن جني - سر الصناعة ١: ٢٣٤.
(٣) الرضى - شرح الشافية ٣: ٢٥٣.
(٤) سر الصناعة ١: ١٩٢.
(٥) سر الصناعة ١: ٢٠٨.
(٦) أبو حيان - البحر ٥: ٣٠٧.

٣- وقد يحدث نتيجةَ الهجرات: أن تضطر طائفة ذاتُ أنظمة لغوية متميزة - تحت تأثير الحاجة الملجئة إلى طلب العيش والبحث عن مواطنه- إلي الهجرة ومجاورة قوم غُرَبَاء عنهم في كثيرٍ من أنماط السلوك دون أن يصاحبَ ذلك غَزْوٌ مسلح، وتكون النتيجةُ أن يَشْتَبِكَ الفريقان في صراع متعدد الجوانب، ومنه اللغة، وقد يطول أمدُه أو يقصر، وقد تشتدُّ وطأته أو تخف إلا أن النتيجةَ هي تَأَثُّرُ كل من الغازية والمغزوة ببعضهما فتنشأ بذلك أنواعٌ جديدة من اللهجات، وهو ما حصل شيء منه في نشأة بعض اللهجات العربية، فهجرةُ بعض القبائل اليمنية إلى الشمال ومجاورة هذه القبائل لبعض أمم الشمال وقبائله العدنانية أَنْسَى بعض القبائل القحطانية أصولَ لهجاتها اليمنية القديمة وأوجد أنواعًا أخرى من اللهجات كان من نتيجته تلك اللهجاتُ الطائية، والغسانية، والجذامية، ولهجات الأوس والخزرج. . . ، ولم يقلْ أحدٌ من علماء العربية الأوائل بأنها كانت لهجاتٍ يمنيةً أو عدنانيةً خالصةً بل قالوا: بإمكان أن يكون قد وقع في كلام من خرجت لهجته عن القياس لغةٌ قديمة، ومن غير شك في أن لغة حمير مغايرةٌ للغة مضر[١] في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها، ومن هنا فجميعُ ما ذكرنا لهجاتٌ جديدة جمعت بين خصائص اللهجتين وانتقَتْ منهما ما يلائمهما إذ نجد فيما وصل إلينا من مظاهر لهجات بعض هذه القبائل اليمنية سمات لهجية تفارق لهجاتِ العدنانيين وأخرى تنميها إلى الأصول القديمة.

فوجدت لهجات: طيء، خثعم، بلحارث بن كعب، أزد شنوءة، قضاعة، لخم، اليمن. . . وجميعها من أصل يمني.

كما رووا أن الطائيين يقولون: أم رجل في الرجل، وأنشدوا على ذلك قوله:

ذَاكَ خَلِيْلِي وَذُو يُوَاصِلُنِي يَرْمِي وَرَائِي بِامْسَهَمْ وَامْسَلِمَة

وقالوا: إنها امتداد للغة حمير القديمة[٢] حافظ عليها الطائي فاستعملها في لهجته الجديدة، وبالمثل قالوا: في هراق من أراق، وقالوا: إنه دخيل من العربية الجنوبية، وقد وُجِدَتْ في لهجة لطيء اليمنية[٣].

(١) الخصائص ١: ٣٨٦. (٢) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠: ٣٤.

(٣) محمود فهمي حجازي - علم اللغة العربية ١٨٥.

وهذيل تجر بـ«متى» من نحو: أَخْرِجْهَا مَتَىَ كُمِّه، وعقيل: تجر بـ«لعل»[1] التي تنصب بها الحجازية الفصحى المبتدأ وترفع الخبر من نحو: لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرا.

ويهمل بنو تميم -ما النافية- التى نصبت بها الحجازية الفصحى الخبر في قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١][2] وأمثال ذلك كثير.

واستعملتْ ألفاظًا من لهجات بعض القبائل بمعانٍ مغايرة لما كانت عليه عند الحجازيين فكان -فيما وصل إلينا من لغة- أن جمعت بين معنيين:

أحدهما: الأصل.

والآخر: فرع عنه.

وفي القرآن: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢].

والظن ورد بمعنى الشك واليقين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، والثابت استعمال -فوق في لغة العرب بمعنى «دون» وبمعنى «الأكثر» أيضًا.

وقال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] والمسجور: المملوء والفارغ.

وقال تعالى: ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء: ٨٣] وهو بمعنى سقط وبمعنى ارتفع[3].

وأمثال ذلك كثير...

ولا ريب في أن الفصحى القرشية قد استعملتْ واحدًا من هذه المعاني في كل لفظ مما ذكر، وترك الباقي في لهجات لبعض العرب.

****

(١) ابن هشام - المغني ١: ٣٣٤، ١٥٥.

(٢) نفسه ١: ٣٠٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١: ٣٩٣، البحر ١: ١٢٣.